



قسم : العلوم الإنسانية
الدكتور: عبو ابراهيم
الدرجة العلمية: أستاذ محاضر. "أ".

السند البيداغوجي الخاص بمقياس:

تاريخ الجزائر الحديث ما بين القرنين 16-19م.

موجه لطلبة السنة: السنة الثانية. ل.م.د.
فـ ر ع : علوم إنسانية
مـ د ا ن : علوم إنسانية و اجتماعية.
عدد صفحات السند (مع احتساب الواجهة وما تلاها):

لجنة تحكيم السند:

الرقم	اسم ولقب الأستاذ	الرتبة	جامعة الانتماء
01	د.أ. بوشنافي محمد.	استاذ التعليم العالي.	جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس.
02	د.أ. بونقاب مختار	استاذ التعليم العالي.	جامعة مصطفى اسطمبولي-معسكر.
03	د. الشيخ لعرج	أستاذ محاضر "أ".	جامعة مصطفى اسطمبولي. معسكر.

السنة الجامعية: 2023-2024م

السداسي: الرابع

عنوان الوحدة : التعليم الأساسية

المادة: تاريخ الجزائر الحديث ما بين القرنين (16-19م)

أهداف التعليم:

(نكر ما يفترض على الطالب اكتسابه من مؤهلات بعد نجاحه في هذه المادة، في ثلاثة أسطر على الأكثر)

تمكين الطالب من معرفة تاريخ الجزائر في ظل الحكم العثماني.

المعارف المسبقة المطلوبة :

(وصف تفصيلي للمعرفة المطلوبة والتي تمكن الطالب من مواصلة هذا التعليم، سطرين على الأكثر)
يدرك مدى تأثير الحضارة الأندلسية والمشرقية في تطورات المغرب الحديث، فضلا على ما عرفته بنظم الحكم في المغرب الإسلامي من السعديين، العلويين، والحفصيين.

محتوى المادة :

1. الغزو الإيبيري للبلدان المغاربية
2. التطور السياسي للجزائر في العهد العثماني
3. العلاقات الدولية للجزائر في التاريخ الحديث
4. الدولة والمجتمع في الجزائر أثناء الفترة العثمانية (نظام الحكم، الاقتصاد، الأوقاف، التعليم، الزوايا، التنظيم الاجتماعي)

طريقة التقييم:

علامة الأعمال الموجهة 50% + الامتحان. 50++%

المراجع: (كتب ومطبوعات، مواقع/انترنت، إلخ)

المصادر

- ابن أبيالضيف: إتحاف أهل الزمان في أخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تونس، 1963 م. ج 2، الدار التونسية والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2 .
- ابن أبي دينار القيرواني: المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق وتعليق محمد شمام، تونس، المكتبة العتيقة.
- ابن سحنون احمد علي الراشدي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، الجزائر، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، 1983 م.

- ابن ميمون محمد: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1972 م.
- ابن هطال احمد التلمساني: رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الجزائري، تحقيق 1969م .
- محمد بن عبد الكريم، القاهرة، عالم الكتب، ط1 .
- حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1985 م.
- الزهار الحاج احمد الشريف: مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار – نقيب أشرف الجزائر 1753م 1830 -م، تقديم وتحقيق احمد توفيق المدني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980 م.
- الزياني محمد بن يوسف: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم المهدي البوعبدللي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979 م.
- مجهول: غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق نور الدين عبد القادر، الجزائر، المطبعة الثعالبية، 1934م.
- مجهول: تاريخ بايات قسنطينة، تصحيح وتعليق حساني مختار، الجزائر، منشورات دحلب، 1999 م.
- مسلم بن عبد القادر: أنيس الغريب والمسافر، تعليق وتحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974 م.
- المراجع:
- بوعزيز يحيى، علاقات الجزائر الخارجية وممالك أوربا (1500-1830)
- بوعزيز يحيى، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية و الدولية، د.م.ج، الجزائر، 1999.
- الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ج3، بيروت، دار الثقافة، 1980.
- الزبيري محمد العربي، مدخل الى تاريخ المغرب العربي الحديث، ب، ط، الجزائر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1975.
- أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766 – 1791 سيرته حروبه ، أعماله ، نظام الدولة والحياة في عهده ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986.
- بوعزيز يحيى، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ط، خ ، الجزائر، دار البصائر للنشر والتوزيع، 2009.
- بوعزيز يحيى، الموجز في تاريخ الجزائر، ط2، ج2، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2009.
- عباد صالح، الجزائر خلال الحكم التركي، ب، ط، الجزائر، دار هومة للنشر والتوزيع، 1980.
- علاقات الجزائر مع العالم الغربي 1515-1830، الجزائر، الأرشيف الوطني الجزائري، 2002.
- مبارك الملي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ب، ط، ج4، الجزائر، دار الكتاب العربي، 2011.
- شويتم أرزقي، دراسات ووثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي 1519-1830، ط1، لجزائر، دار الكتاب العربي، 2010 .
- شوفالبي هكورين : الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1541 – 1510، (تر: جمال حمادة) د م ج، الجزائر.
- جاجيات عبد الحميد : خطر النصارى و انهيار الدولة الزيانية، الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي).

- سعيد وين ناصر الدين: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800- 1830 م ش. ون. ت الجزائر.
- عبد القادر نور الدين : صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد العثماني، ط1، مطبعة البعث، قسنطينة، 1965.
- ألتر عزيز سامح : الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد علي عامريبيرو، ط1، دار النهضة العربية، 1989م.
- إسماعيل صبريمقلد : العلاقات السياسية الدولية، دراسة في الأصول النظرية، الكويت، منشورات ذات السلاسل، 1985م.
- اجقو علي : محاضرات في تاريخ مؤسسات الدولة الجزائرية (1514م - 1837 م)، للمعلوماتية والخدمات المكتبية، ط2 (Batna-net) الجزائر، ج2، باتنة نيت
- اينالبيك خليل تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار ، ترجمة محمد ارناؤوط ، بيروت ، دار المدار الإسلامي ، 2002م.
- بسام العسلي : خير الدين بربروس، مصر، دار النفائس، 1986م.
- خنوف علي : السلطة التركية في الأرياف الشمالية لبابلييك الشرق في نهاية العهد العثماني وبداية العهد الفرنسي ، الجزائر، بد، 1999م.

مراجع باللغة الأجنبية

- BENACHENHOU A., l'État algérien en 1830, ses institutions sous l'Émir Abdelkader
- BONTEMS Claude, Manuel des institutions algériennes, de la domination turque à l'indépendance, La domination turque et le régime militaire 1518-1870
- DAN Pierre, Histoire de barbarie et de ses corsaires
- ESTERHAZY WALSHIN, De la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger
- GRAMMONT H.D. De, Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830)
- HAËDO Fray Diego de, Histoire des rois d'Alger
- HAËDO Fray Diego de, Topographie et histoire générale d'Alger
- KHODJA Hamdan, Le Miroir, aperçu historique et statistique sur la régence d'Alger

*مقدمة:

يمكن تقسيم العصر الموحيدي إلى فترتين رئيسيتين: الأولى بدأت منذ نشأتها على يد عبد المؤمن بن علي أحد أصحاب المهدي بن تومرت مؤسس الدعوة، ثم وصلت إلى أوجها في عهود الخلفاء يوسف بن عبد المؤمن ثم أبنة يعقوب المنصور (صاحب انتصار الأرك) ثم محمد الناصر بن المنصور الذي حقق الانتصار على أخطر حركة مضادة في افريقية هي حركة ابن غانية، لكنه أنهزم قبيل وفاته أمام الأسبان في معركة العقاب سنة 609هـ/1212م لتبدأ بذلك فترة الضعف والاحتضار إلى انتهت الدولة سنة 668/1269م.

كانت هزيمة الموحدين أمام التحالف الاسباني النصراني¹ في معركة العقاب أحد العوامل المهمة في دفع دولتهم نحو الانهيار التدريجي، فقد كان من عواقبها ضعف السلطة المركزية مما أدى إلى نوع من استقلال مراكز القوى الناجم عن ضعف المركزية والتي ظهرت على إثرها:

1/دولة بني حفص:

اتخذت من تونس قاعدة لها، فكانت حدودها بالتالي تمتد من مدينة طرابلس حتى شرق الجزائر. انفصلت الدولة الحفصية عن دولة الموحدين في عهد أبي زكريا يحي الحفصي الذي أعلن الاستقلال وأطلق اسم أمير المؤمنين على نفسه عام 1228م، كما قام بضم جميع الأراضي طرابلس وتونس وقسنطينة والجريد و الزاب وجزء من الجزائر وهران، وتمكن من ضم تلمسان بعد أن قضى على المنافسة المرينية وسيطر على سبتة كما تحصل على مساندة العديد من الإمارات الأندلسية، عندما شعر بضعف سلطة الدولة الموحدية².

ولما أحس بنو مرين بخطر الحفصيين استمالوا بني عبد الواد للوقوف في وجه هذا الخطر، وكانت عاصمة الجزائر الحفصية هي بجاية ثم صارت الأهمية إلى مدينة قسنطينة غير أنها سرعان ما دب الخلاف والضعف نتيجة الحروب المستمرة بين أبناء الأسرة الحاكمة وبين الحفصيين والمرينيين والزيانيين من جهة أخرى، وضعف شخصياتهم وخاصة في أواخر عهد الدولة الحفصية وقلة اهتمامهم بشؤون الدولة، هذه العوامل وغيرها مجتمعة أدت إلى سقوط الدولة الحفصية ونهايتها بعد أن أصبحت خاضعة للأسبان بموجب معاهدة الحماية الموقعة سنة 1535م³.

¹ يحي جلال، تاريخ المغرب الكبير، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 87.

² التنسي محمد بن عبد الله، تاريخ بني زيان، ملوك تلمسان، ترجمة: محمود بوعباد، م. و.ك، الجزائر، ص 8.

³ التنسي، تاريخ بني زيان.....مصدر سابق، ص 9.

2/دولة بني مرين:

جعلت من المغرب الأقصى قاعدة لملكهم.. ولم تعرف الدولة المرينية حدودا واضحة طوال فترة وجودها حيث استولى أبو الحسن على بعض المناطق بالأندلس وندرومة وهنين سنة 1324م ثم استولى على وهران وتنس ومليانة ومدينة الجزائر سنة 1335م، ثم دخل مدينة بجاية فرفع عن أهلها ربع الضرائب المفروضة عليهم وترك بها حامية عسكرية و توجه إلى تونس فسيطر عليها.

أما مدينة تلمسان عاصمة الزيانيين فقد تعرضت للحصار ست مرات كان أشدها ذلك الذي ضربه أبو يعقوب السلطان المريني عليها ودام ثمانين سنين وثلاثة أشهر، مات فيها 12 ألف شخص، ورغم ذلك فشل في احتلالها ولم يرفع عنها الحصار إلا بمقتل السلطان المريني على يد أحد ممالكه سنة 1306م.⁴

3/دولة بني زيان:

جعلوا من وسط المغرب الأوسط وغربها مقرا وقاعدة لملكهم، أصبحت ضحية ونظرا للموقع الجغرافي بين الأمازيغ المتنافستين وتمكنوا من الحفاظ على ملكهم مدة ثلاثة قرون، كما تجددت أطماع الزيانيين خلال عهد "أبي مالك الزياني" سنة 1411م فتمكن من استرجاع الشرق الجزائري من الحفصيين، كما توسع غربا مستغلا الحرب الأهلية التي كانت قائمة بين السلطان المريني وعمه ابن حسون أمير "مكناس"، وفي نفس الوقت تمكن البرتغاليون من احتلال مدينة "سبتة" سنة 1415م والمدن الأطلسية، وكان أول رد شعبي لتلك الهزيمة اندلاع ثورة شعبية بمدينة "فاس" أدت إلى مقتل السلطان "أبي سعيد" بسبب انشغاله بالدفاع عن ملكه وتخاذله في صد الخطر البرتغالي والقضاء على جميع أفراد عائلته لنتهي بذلك الدولة المرينية وتبدأ عهد الدولة الوطاسية في النصف الثاني من القرن 15م.⁵

اعتبر الحفصيون ما قام به الزيانيون في المغرب إنذارا لهم، مما دفعهم للقيام بحملة عسكرية ضخمة بقيادة "أبي فارس عبد العزيز" حيث تمكن من السيطرة على الجزائر واحتلال مدينة تلمسان 1424م، كما حوصرت مرتين 1462م، و 1466م دون أن تخضع لهم.

⁴Godard. Léon. Histoire du Maroc .Edition Atlas .Paris.1965.P.394.

⁵التنسي، تاريخ بني زيان.....مصدر سابق، ص12.

لقد مكنت سيطرة الحفصيين على مملكة الزيانيين اقتسام تجارة الذهب مع فاس، والقاهرة عبر طريق التي تنطلق من الجنوب إلى الشمال وهذا ما مكن الحفصيين من تحقيق مشاريعهم التوسعية في الجزائر وهم مطمئنين على حدودهم الشرقية".⁶

إلى جانب أطماع الحفصيين والمرينيين، تعرضت مدينة تلمسان لتهديدات القبائل الصحراوية، ورغم حصولها على الهدايا والأموال من الحكام الزيانيين فنادرا ما تجد طرق آمنة في تلك الفترة. ورغم معاناة إمارة تلمسان من تنافس جيرانها وصراعات أبناء الأسرة الزيانية على الحكم إلا أنها ساهمت بصفة فعالة في أحياء النشاط الاقتصادي والعلمي، فازدهرت المبادلات مع أوروبا خصوصا مملكتي أسبانيا و البرتغال والجمهريات الإيطالية ساعدها في ذلك إشرافها على مدينة وهران والمرسى الكبير، إضافة إلى كونها محطة رئيسية نحو إفريقيا جنوب الصحراء، وحسن استقبالها ومعاملتها للأجانب من مسيحيين ويهود.

أما بقية المدن الجزائرية فهي عبارة عن مدن مستقلة تتجاوزها القوى المتصارعة آنذاك، فمدينة الجزائر بما فيها سهل متيجة فكانت تحت حكم الثعلبية، ولكلما خضعت لسلطة ما تدفع لها الجزية مع تمتعها بالاستقلالية من حين لآخر، مع استمرار النشاط التجاري مع الضفة الأخرى للمتوسط منذ أواخر القرن 15م.

أما إدارة مدينة الجزائر فكانت من اختصاص مجلس أعيان تحت حماية الثعلبية، وبقيت المدينة تحت سلطتهم و نفوذهم حتى بداية الهجمات الأسبانية على السواحل الجزائرية في عهد زعيمهم "سليم التومي".⁷

أما مدينة وهران فكانت تابعة لإمارة تلمسان إلا أنها تتمرد باستمرار على حكم الزيانيين وترفض الخضوع لهم، فكان سكانها حرفيون وعدد كبير منهم من الأندلسيين الفارين من الاضطهاد الديني، ولتسيير المدينة يختار من مجلس الأعيان، وعرف عن مدينة وهران حسن معاملتها للأوروبيين مما جعل الاتصالات مكثفة خصوصا مع الجنونيين والكاتالونيين".⁸

أما مدينة بجاية، فكانت خاضعة لحكم الحفصيين في تونس، وتمكن الأمير أبو الحسن من إنشاء إمارة حقيقية ببجاية وكان حكامها يتمتعون باستقلالية دائمة عن السلطة المركزية، وقد ساهمت المدينة في نجدة الأندلسيين الفارين من الاضطهاد الديني من تسليح السفن والإغارة على السواحل الأسبانية.

⁶ توفيق المدني، حرب الثلاثمائة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 69.

⁷ صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، 1514-1830، ط2، دار هومة، الجزائر، 2002، ص 123.

⁸ المرجع نفسه، ص 71.

أما المناطق الصحراوية، فإن الطبيعة قد عزلتها عن الحياة السياسية والفتن الواقعة بالشمال، ولكن موقعها ذلك لم يكن ليحميها من الفتن الداخلية، فكانت إمارات "تقرت" و"تماسن" و"مقوسة" و"ورقلة" تربطها علاقات سلمية تارة، وتمزقها الحروب تارة أخرى، زيادة على الغارات المتعددة التي كانت تشنها قبائل الدواودة"⁹

أما الجنوب الغربي، فلم يكن يخضع للنفوذ الزياني المتمركز شماله، فلم يتبع لأية سلطة إلى أن أخضعه باي الغرب محمد بن عثمان الكبير في نهاية القرن الثامن عشر، وبقيت منطقة وادي الساورة منعزلة هي الأخرى تدير شؤونها بعيدة عن النفوذ الخارجي وذلك تحت سلطة محلية تحفظ النظام وتأمين البلاد من جماعات اللصوص وقطاع الطرق"¹⁰

أما بنو جلاب فقد أقاموا إمارة بمدينة توقرت وظلت قائمة طول فترة العهد العثماني، لقد وصف الحسن بن محمد الوزان الفاسي "ليون الإفريقي" في أوائل القرن السادس عشر المدينة بقوله: "توجد حول توقرت عدة قصور وقرى وأماكن مأهولة على طول مسيرة ثلاثة أيام أو أربعة وكلها خاضعة للأمير توقرت الذي أصبح يجبي منها مائة و ثلاثين ألف مثقال، ولهذا الأمير حرس قوي من الفرسان ورماة القذائف والبنادق الأتراك يعطيهم أجرا مناسبا حتى يبقى كل واحد منهم في خدمته عن طيب خاطر."¹¹

لقد أقام بنو جلاب إمارتهم في منطقة يسودها الفراغ السياسي منذ القرن الرابع عشر، وكانت واحات وادي ريغ الواقعة بين بسكرة وبليدة عمار في أقصى جنوب الوادي تعيش مستقلة متطاحنة على رأس كل منها تقريبا أعيان من قبيلة ريغة التي هاجرت إلى المنطقة، ومن عائلاتها نجد: أولاد عبید الله الذين كانوا يحكمون تقرت قبل بني جلاب ويتصارعون مع بني ابراهيم سادة تماسين الواقعة إلى الغرب من تقرت"¹²

عرفت مرحلة سقوط دولة الموحدين بروز الإمارات المغاربية التي غرقت في المنازعات والتطاحنات الإقليمية والإقليمية والعائلية على حد سواء، وتجسد التطاحن الإقليمي في رغبة كل دولة في السيطرة على المغرب الإسلامي بأكمله الشيء الذي أدى إلى الاصطدام ببعضها البعض، وقد كانت هذه الحروب استنزافا واضحا لثروات البلاد وجهودا ضائعة"¹³.

⁹ Ferraut.L.C .histoire des sultans de Touggourt et du sud Algerien.Origines et histoire dune dynastie saharienne. présentation Kamel Chehrit.ed.

G.A.L. Alger.2006p37.

مجهول، تاريخ بايات قسنطينة، تصحيح وتعليق: حساني مختار، الجزائر، منشورات دحلب، 1999م، ص34.¹⁰
شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، دار التونسية للنشر والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978، ص322.¹¹

نفسه، ص325.¹²

على التاج الصادق، العلاقات الاقتصادية بين العالم الإسلامي والأوروبي خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1977، ص23.¹³

لقد سعى بنو مرين إلى السيطرة على المغرب الكبير بيد أنهم اصطدموا بالحفصيين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم الورثة الشرعيين للموحدين، وقد عانت بلاد المغرب الأوسط أي دولة بني عبد الواد بحكم موقعها الوسطي من ذلك كثيرا، فكانت تارة تصطدم بالمرينيين وتارة أخرى بالحفصيين، وأدى ذلك إلى صدامات دامية لم تحقق الهدف المنشود في توحيد المغرب الإسلامي، مما نتج عنه عدم الاستقرار البلدان المغاربة¹⁴

كانت من نتائج هذه الحروب المستمرة أن عمت الفوضى ولم يحل القرن الخامس عشر حتى ظهر واضحا عجز ملوك بني عبد الوادي على فرض سيطرتهم على المغرب الأوسط بأكمله، ولم يتمكنوا من فرض نفوسهم حتى على الناحية الغربية وتلمسان إلا بعسر.

إن لغة التخاطب بين الأخوة الأعداء الحفصيين والزيانيين والمرينيين والتهافت على السلطة، دفع أبناء الأسرة الواحدة للاقتتال فيما بينهم في حين أن الخطر الخارجي يترص بهم جميعا

انغمست هذه الدويلات في حروب طويلة مزمنة إذ خلال قرن كامل لم يبق لأمرأى هذه العائلات المالكة من السلطة سوى اسمها وكان شغل الملوك الشاغل إحباط المؤامرات والفتن، ويصف جون-ب-وولف حالة المغرب الأوسط بما يلي: "فقد كان عبارة عن مستنقع سياسي من مدن صغيرة، وقرى مستقلة، وقبائل بدوية أو نصف بدوية من البربر والعرب، ولعل أبرزهم سكان بلاد زواوة"¹⁵، أما المؤرخ "شارل أبديري جوليان" لخص هذا الوضع المتريدي بقوله: "إن بلاد المغرب أصبحت عبارة عن فسيفساء سياسية"¹⁶

إن هذه الأوضاع المتريدي والفوضى السياسية العارمة كانت عاملا مشجعا للأطماع الصليبية، ونلمس هذا بكل جلاء فيما كتبه "فرناندو دي زافرا" والذي كان كاتبا بالبلاط الاسباني ومكلفا بحراسة شواطئ اسبانيا ومراقبة حركة الأندلسيين المتوجهين إلى بلاد المغرب في أعقاب إجراءات الطرد: "إن بلاد المغرب بأكملها تجتاز حالة انهيار نفسي يظهر معها أن الله قد أراد منحها لصاحبي الجلالة"¹⁷.

ويتضمن هذا القول حقيقتين خطيرتين:

مجهول، تاريخيات قسنطينة مصدر سابق، ص 36.¹⁴

جون-ب-وولف، الجزائر وأوروبا 1500-1830 م، ترجمة وتعليق، د. أبو القاسم سعد الله، دار الرائد والمعرفة، الجزائر، 2009، ص 23.¹⁵

شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى منذ الفتح الإسلامي إلى سنة 1830 م، تح: محمد مزالي والبشير سلامة، ج 2، دار التونسية للنشر، د. م، 1983، ص 250.¹⁶

F. Braudel. Les espagnols et l'Afrique du nord de 1492-1577. R.A. 1928. P198.¹⁷

1-وصف مطابق للحقيقية ينم عن معرفة دقيقة بالوضع السياسي المتدهور مما يجعلنا نستنتج بدون عناء أن

اسبانيا كانت تتابع عن كثب ما يجري في بلاد المغرب الإسلامي.

2- تحريض صريح للاستيلاء على بلاد المغرب الإسلامي.

لقد أخذت الحروب بين مسلمي الأندلس والصليبيين الأسباب صبغة دينية نظرا للدور البالغ وللمساهمة العظيمة للكنيسة في ذلك من خلال حث جميع البلاد المسيحية علىوضع إمكاناتها البشرية والمالية تحت تصرف ملوك اسبانيا من اجل إبعاد الخطر المسلمين وفرض ضريبة لتمويل الحرب ضد المسلمين، وتعد سنة 1492م سنة حاسمة في تاريخ اسبانيا بوجه خاص إذ كانت تعيش في غمرة النصرين العظيمين: نصر على المسلمين بالأندلس ونصر اكتشاف العالم الجديد¹⁸.

لم يكن هذا الوضع الذي سلكته الكيانات المغاربية المتهرئة والمغلوبة على أمرها محل رضا السكان في الأقطار المغاربية، بل واجهت شعوبه هذا المد الصليبي بشجاعة عالية، فلم تسمح له بتجاوز بعض الموانئ على الساحل¹⁹ ويرجع الفضل في ذلك إلى دور العلماء والصلحاء والمرابطين ورجال الطرق الصوفية الذين كانوا يتولون بأنفسهم صد العدو الصليبي، أو يواجهونه عسكريا وروحيا، فكونوا لذلك الرباطات، وجمعوا المجاهدين من كل أنحاء البلاد لمواجهة الخطر الصليبي المسيحي الداهم على هذه المنطقة.²⁰ لقد كانت مدينة مليلة على الساحل المغربي أول مدينة تسقط في يد الأسبان سنة 1497م، ومدينة مرسى الكبير وهو موقع له أهميته بالغه 1505م بعد حصار للميناء دام خمسين يوما، ومدينة وهران سنة 1509م بعدما قاموا بتخريب المدينة وقتل 4000 أسير وتحويل مسجدين إلى كنيسيتين ونتيجة لهذا الانتصار الاسباني اعترف السلطان الزياني بنوع من التبعية لاسبانيا الصليبية. أما مدينة بجاية كانت أوضاعها السياسية متدهورة بسبب الصراع العائلي تمكن الأسبان من احتلالها سنة 1510م بعدما ارتكبوا مجازر شنيعة بذبح 4100 مواطن بسبب مقاومتهم البطولية، واحتلال مدينة دلس 1511 والتزمت بدفع الضريبة إلى اسبانيا. تيطوان- القصر الكبير 1458م، طنجة 1471م، مستغانم 1511م وتخريب مدينة "أفنا" درا البيضاء حاليا، وبذلك تمكنت اسبانيا الصليبية من تطويق

¹⁸ العروي، تاريخ المغرب، محاولة في التركيب، ترجمة ذوقان قرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1977، ص 58.

¹⁹ عثمان سعدي، الجزائر في التاريخ من العصور القديمة حتى سنة 1954م، دار الأمة، الجزائر، 2012م، ص 369.

²⁰ المهدي البوعبدلي في مقدمة: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، نقلا عن جمال قنان: معاهدة الجزائر مع فرنسا 1619-1830م، الجزائر، دار هومة، 2012، ص 21.

ساحل المغرب الإسلامي عن طريق احتلالها نقاط إستراتيجية بواسطة أساطيلها الضخمة وقواتها الكبيرة، أما بقية المدن الجزائرية فهي عبارة عن مدن مستقلة تتجاذبها قوة متصارعة آنذاك، فمدينة الجزائر بما فيها سهل متيجة فكانت تحت حكم الثعالبة، وكلما خضعت لسلطة ما تدفع لها الجزية مع تمتعها بالاستقلالية من حين لآخر، مع استمرارية النشاط التجاري مع الضفة الأخرى للمتوسط منذ أواخر القرن 15م.

-أما إدارة مدينة الجزائر فكانت من اختصاص مجلس أعيان تحت حماية الثعالبة وبقيت تحت سلطتهم حتى بداية الهجمات الأسبانية على السواحل الجزائرية في عهد "سليم التومي". أما مدينة وهران فكانت تابعة لإمارة تلمسان إلا أنها تتمرد باستمرار على حكم الزيانيين وترفض الخضوع لهم²¹.

سكان وهران حرافيون وعدد كبير منهم أندلسيون فروا من الاضطهاد الصليبي الأسباني، ولتسيير المدينة يختار من مجلس للأعيان، وعرف عنها حسن معاملتها للأوروبيين مع جعل الاتصالات مكثفة مع الجنوبيين والكاتالونيين..
-أما مدينة بجاية فكانت خاضعة لحكم الحفصيين في تونس، وتمكن الأمير "أبو الحسن" من إنشاء إمارة حقيقية ببجاية وحكامها يتمتعون باستقلالية دائمة عن السلطة المركزية، وقد ساهمت إمارة بجاية في نجدة الأندلسيين الفارين من الاضطهاد الديني من تسليح السفن والإغارة على السواحل الأسبانية.

-أما خارج المدن والمناطق الداخلية على السهول والهضاب العليا فتتحكم فيها القبائل الخارجة عن رقابة أية سلطة مركزية مثل قبائل الدواودة وأولاد سالم. أحد فروع الثعالبة الذين كان نفوذهم يمتد على سهل متيجة حتى مدينة الجزائر²².

وعموما يمكننا تلخيص الوضع السياسي العام أن البلاد انقسمت إلى مجموعة من الإمارات والمشيخات والقبائل المستقلة: مشيخة الجزائر التي تتصدرها قبيلة الثعالبة وإمارة "كوكو" التي تشمل القسم الغربي من جبال القبائل الكبرى، أما القسم الشرقي من بلاد القبائل وعاصمته قلعة بني العباس فقد كان تابعا للأمير عبد العزيز الحفصي ومن ثمة فإن حكم ملوك بني زيان قد أقتصر على مدينة تلمسان ووضواحيها.

²¹ توفيق المدني، حرب الثلاثمائة.....مرجع سابق، ص 69.

²² مرجع نفسه، ص 71.

1/ المحاضرة الأولى: الغزو الأيبيري للبلدان المغربية:

1-1 الأسباب السياسية والاقتصادية:

توحيد اسبانيا سياسيا دفع ملوكها إلى التفكير في إنشاء إمبراطورية واسعة الأرجاء مع صعود "شارل كونيت" وأنه مكلف بمهمة ربانية بتكليف من الكنيسة التي تربى في أحضانها ، كما أن ابنه و خليفته فيليب الثاني قاد مشروع الهيمنة على كل الحوض المتوسط من خلال وضع أسس احتلال استيطاني²³.

إن اختار وهران والمرسي الكبير لانطلاقة المشروع لأنهما يمثلان مينائي إمارة تلمسان وهذه الأخيرة تعتبر بوابة رئيسية نحو الإمارات الإفريقية جنوب الصحراء حيث تعبر منها كميات ضخمة من السلع بما في ذلك وفرة القمح و الماشية والرغبة في السيطرة على تجارة الذهب التي كان يتحصل عليها السلطان الحفصي من تجارته مع إفريقيا جنوب الصحراء لتحويل تلك الطرق نحو البحروهي محطة هامة للتجار القادمين من جنوة والبندقية، و احتلال الساحل الشمال الإفريقي الذي يمكن اسبانيا من خلق طريق بحري يمتد من مدينة "سيفيل" إلى صقلية الغنية بالقمح و الاسبانية Séville مصدر غذائها الرئيسي.

التنافس البرتغالي- الاسباني على السواحل الأطلسية دفعت بهم للاتفاق على تقسيم سواحل المغرب الإسلامي إلى مناطق نفوذ بمقتضى معاهدة "تورديسيلاس" 1494م، وهناك تعاون مشترك بينهما لخنق وإخضاع المغرب بإقامة الحصينات في المدن المحتلة مما أدى إلى خنق تجارة المغرب الخارجية.²⁴

لم تتأثر المبادلات التجارية بين المغرب الإسلامي والمملكات المسيحية، وكان الأسطول يبحر في محطات محددة يبدأ من طرابلس، جربة، تونس، بجاية، ، بجاية، القل، عنابة، الجزائر، وهران، ويؤكد حسن الوزان مطلع القرن 16م: "كان للتجار الجنوبيين وكالات هامة في كل من عنابة، تونس، طرابلس، سبتة، وبقية الموانئ يحملون الصباغة والجلود من القل والحبوب والزبدة من عنابة ويصطادون المرجان على طول الساحل من عنابة إلى تونس.

2-1 الأسباب الدينية:

إن زواج الملك فرديناند وايزابيلا تم بمباركة البابوية ورعايتها والتي منحهم لقب الملوك الكاثوليك بعد سقوط إمارة غرناطة في عهد البابا ألكسندر السادس حتى أن اسبانيا برمتها بانتصارها الديني على المسلمين ومدفوعة بالروح الصليبية للكاردينال "فرانيسكو خيمينيس دي سيسنروس" الذي كان وراء المشاريع التوسعية في الجزائر وقد كان

²³ توفيق المدني، حرب الثلاثمائة.....مرجع سابق ، ص 73.

²⁴ جون وولف، الجزائر و أوروبا.....مصدر سابق، ص 25.

حلم إيزابيلا التي ماتت 1504م هي تحضير للحملة العسكرية على المرسى الكبير وتركت وصيتها قبل وفاتها: "انه لا ينبغي إيقاف غزو إفريقيا، ولا الصراع ضد الكفار المسلمين من أجل العقيدة"، وفعلا احترم خيمينيس تلك الوصية وتم احتلال المرسى الكبير أثناء الحملة على وهران والذي قام بتجهيزها بأمواله الخاصة في وقت كانت خزينة اسبانيا تعاني من عجز بسبب حروبها الوراثة في أوروبا.

-وبعد وفاة الملك فرديناند خلفه الملك فيليب الثاني ليواصل سياسة التوسع لملوك اسبانيا شعاره: "استئصال هذا العنصر الذي لا يمكنه تمسيحه" ولإبراز الدافع الديني لا بد من الإشارة إلى أن المشاريع الاسبانية استهدفت التصدي للدولة العثمانية لضم بلاد المغرب داخل إطار الخلافة الإسلامية ، كما ساهمت الكنيسة البابوية في لعب دور الوسيط بين الأسبان و البرتغال على التوسع والاحتلال ولتفادي أي مواجهة بينهما قد تقضي على مشروع الكنيسة في تمسيح العالم²⁵.

3.- الأسباب العسكرية:

ترجع البداية الأولى للقرصنة إلى الهجرة الجماعية لمسلمي الأندلس نحو أقطار المغرب الإسلامي و على رأسها الجزائر منذ سقوط مدينة أشبيليا 1371م. كان البحارة المسلمون انطلاقا من مدينة "الميريا" يجوبون بحار و سواحل الدول المسيحية، وبفضلهم تمكن المغاربة من إتقان الملاحة و القرصنة وكان ضحاياهم سفن فرنسية وانجليزية وهولندية وإيطالية وألمانية تمر عبر مضيق جبل طارق متجهة نحو الشرق، وبعد سقوط إمارة غرناطة أخذت السفن الاسبانية تطارد القراصنة المغربية متخذة منها ذريعة للاعتداء على السواحل، ثم جاءت ثورة الباشارات 1502/1499م وتخير المشاركين فيها من أهل غرناطة بين التنصير و النفي²⁶، فكانت أن اختارت الأغلبية الهجرة إلى أقاليم المغرب الإسلامي، وبالنسبة لهؤلاء فالقرصنة هي جهاد بحري ضد الصليبيين لتأخذ بعدا إنسانيا لإنقاذ آلف المسلمين الفارين من اسبانيا الصليبية بعدما زحفوا من شمالها إلى جنوبها و تطلعهم إلى الإسلام بمساندة إخوانهم بالمغرب الإسلامي²⁷.

استقر هؤلاء المهاجرون بمدن المغرب الإسلامي منهم من اندمج بإنشاء ورشات لصناعة الأسلحة والأقمشة والمصنوعات الجلدية، و البعض الآخر انطلق إلى البحر على متن السفن التي كانوا يجهزونها انطلاقا من وهران، الجزائر، بجاية يهاجمون سواحل كاتالونيا، جزر ايبيزا، مايوركا، صقلية فساهموا بذلك في إنعاش الساحل المغربي

²⁵ F. Braudel. Les espagnols et l'Afrique.....op.cit. P114.

²⁶ توفيق المدني، حرب الثلاثمائة.....مرجع سابق، ص70.

²⁷ جون وولف، الجزائر و أوروبا.....مصدر سابق، ص125.

وبفضلهم أصبحت مدينة الجزائر عاصمة القرصنة منذ القرن 15م فازدهرت التجارة والمدن بما في ذلك ذهب أمريكا عبر الأطلسي²⁸، ومع مجيء الإخوة برباروس انتظمت الأمور أكثر ونشطت البحرية الجزائرية جاعلة مهمتها الأولى إنقاذ مسلمي الأندلس بعد ثورة الباشارات حيث جهز خير الدين 36 سفينة ساهمت في إنقاذ الآلاف منهم، ولوضع حد لنشاط البحرية الجزائرية مما سببته من خسائر مادية وبشرية وذلك بالإغارة على سواحلها واحتلال أهم المدن التي بدون موانئها لا يمكن الحديث عن نشاط بحري²⁹.

2- أوضاع الدول المغاربية في أواخر القرن 15م ومطلع القرن 16م.

فرضت اسبانيا الصليبية الطاعة و الولاء على بلاد المغرب الإسلامي و مشايخه وأمرائه وفقا لسياستها و مشاريعها حتى تتفرغ لإيطاليا و الصراع الدائر هناك بين مختلف الدول الأوروبية وفي مقدمتها فرنسا للسيطرة على ثرواتها بالإضافة إلى كونها موطن الكنيسة البابوية.

إن مدن وهران، مرسى الكبير، تلمسان، مستغانم، تنس، بجاية، عنابة، احتلت مباشرة من طرف القوات الاسبانية وإما أرغمت على قبول حصون اسبانية أقيمت قرب موانئها مع وجود مدفعية تستطيع التحكم في كل النشاطات، وباستثناء وهران والمرسى الكبير فإن تسيير المدن ترك للأهالي والمشايخ التابعين لهم، مع العلم أن السياسة الاسبانية في تلك المدن اختلفت حسب المشاريع ورغبات ملوك اسبانيا، فبينما كان هدف إيزابيلا بتدعيم وتوجيه الكاردينال "خيمينيس" الاستيطان والاحتلال داخل البلاد المغاربية واتخاذها قواعد للتوسع داخل البلاد، أما زوجها الملك Presidios فرديناند فقد اكتفى بإقامة مراكز محصنة.³⁰

لأنه كان مهتم أكثر بإيطاليا و الصراع الأوروبي هناك أكثر من وجوده بالجزائر.

* احتلال المرسى الكبير

كان الكاردينال "خيمينيس" الموجه حتى المنفذ للمشاريع التوسعية الاسبانية على المدن و الموانئ الجزائرية بمباركة العرش الأراغوني، فوقع الاختيار على المرسى الكبير كنقطة إنزال تحت نصيحة "جيرينيمو فبانيلي" وهو الجاسوس مشكلة من 150 سفينة من Diego Fernando de cordoba الإيطالي من البندقية، قاد الحملة العسكرية على المرسى مختلف الأحجام و 5000 عسكري. جاء الإنزال العسكري الاسباني ليلا في "كاب فالكون" ورغم المقاومة الباسلة لحماية المرسى الكبير وعلى رأسها قائدها الذي صمد مدة ثلاثة أيام قبل أن يستشهد وسلم الحصن وبشروط مشرفة قبل أن

²⁸ التنبسي محمد بن عبد الله، تاريخ.....مصدر سابق، 74.

²⁹ يحي جلال، تاريخ المغرب الكبير.....مرجع سابق، ص89.

³⁰ نفسه، ص91.

تصل النجدات من تلمسان والمناطق المجاورة لها وتمكن الأسبان من التحصن داخل أسوار المرسى حيث نصبوا مدافعهم التي منعت تقدم الجزائريين.

2- احتلال مدينة وهران 1509 م. عين على رأس الحملة القائد العسكري "دون بيدرو نافارو". بلغ الأسطول العسكري

الاسباني 90 سفينة من مختلف الأحجام و 24 ألف جندي وضابط

وصلت بسرعة إلى مرفأ الكبير واستولت عليها، وقد فشل الهجوم الأول جراء الرياح العاتية don Pedro Navarro..

التي صعبت إنزال الجنود الأسبان، ورغم ضعف التنظيم فقد تمكن المدافعون عن المدينة من صد المعتادين. لقد

أكدت المصادر الأوروبية وحشية الجنود الأسبان من ذبح و تقتيل للشيوخ و الأطفال والنساء دون تمييز وقد بلغ

عدددهم 4000 قتيل ونهبت المدينة من التحف والنفائس والكتب النادرة شحنت كلها إلى اسبانيا، وتم تحرير

300 أسير مسيحي، ومن جهة ثانية قام الكاردينال خيمينيس "من تحويل مسجدي المدينة إلى كنيسة مع تحصينها

لجعلها مركزا حربيا لمواصلة مشاريع الاحتلال والتوسع، كما قام باستقدام عائلات مسيحية تمتن الزراعة من أجل

إقامة مستوطنات و تعمير المدينة كليا بالعنصر المسيحي وبالفعل تم توطین 600 عائلة اسبانية و تعيين "دي كوردوبا"

حاكما عاما على وهران وقاعدة مرسى الكبير و مملكة تلمسان، ودخل هذا الأخير في مفاوضات مع العديد من القبائل

الداخلية وأقام معها تحالفات.

3- احتلال مدينة بجاية وإقامة حصن البينيون مقابل مدينة الجزائر 1510 م.

خرج قائد الأسطول الاسباني "بيدرو نافارو" على رأس أسطول متكون من 14 سفينة على متنها 8000 جندي لغزو

مدينة بجاية.

بجاية آنذاك تمثل أحد أهم المدن الجزائرية بنشاطها العلمي و التجاري والعمراني و البحري نظرا لإشرافها على ميناء

هام ساهم في الوصول أعداد كبيرة من الأندلسيين الفارين من الاضطهاد الديني.

تم الإنزال الاسباني العسكري ليلا ليبدأ الهجوم مع طلوع الفجر، وقد تمكن الأسبان بفضل مدفعيتهم المتطورة

المصوبة نحو تحصينات المدينة من فتح فجوة في السور المحيط بها مكنتهم من التسلل عبره و السيطرة عليها، ورغم

المقاومة الشديدة لسكان المدينة و المدافعين عنها وعلى رأسهم حاكم قسنطينة عبد العزيز الحفصي. أبيضحت المدينة

للجنود الأسبان فخربوها وقتلوا أكثر من 4500 من سكان بجاية، وتنمكن المقاومون من الصعود إلى الجبال

والمرتفعات المشرفة على المدينة لتنظيم أنفسهم استعدادا لمواصلة المقاومة، كانت أولى الأعمال التي قام بها الأسبان ببناء قلعة قرب البحر وإصلاح حصن قديم يطل على البحر قرب مخازن السلاح³¹.

-سقوط مدينتا وهران، بجاية في ظرف قصير نتيجة عنف الهجمات الاسبانية ومعاملة السكان القاسية أحدث موجة من الخوف و الرعب على طول الساحل الجزائري، فأُسرع العديد من الشيوخ وحكام المدن نحو الملك الاسباني فرديناند معلين الطاعة و الخضوع لسلطانه و على رأسهم وفد مدينة الجزائر الذين وقعوا وثيقة الاستسلام بدل الوقوع تحت الحصار البحري الاسباني متذرعين بانعدام نظام دفاعي³².

سنة 1510م توجه "سالم بن تومي" بصفته شيخ مجلس الأعيان لمدينة الجزائر إلى بجاية معلنا ولاءه للقائد الاسباني "دي نافارو" الذي طلب منه دفع ضريبة باهظة، وإطلاق سراح الأسرى المسيحيين وقبول بناء حصن على تلال جزر المقابلة لمدينة الجزائر، كما اشترط عليه الذهاب شخصيا برفقة مولاي عبد الله حاكم مدينة "تنس" إلى اسبانيا متعهدين أمام فرديناند بتنفيذ تلك الشروط، وهي نفس المعاهدة المفروضة على مدينة مستغانم التي تنص على أن العرب و اليهود مجبرون على خدمة ملك القلعة بوفاء وإخلاص، ويدفعون الضرائب والغرامات المفروضة عليهم في كل أول جوان من كل سنة وتحول تلك الأموال إلى أمين خزينة وهران دون تزوير أو غش أو نقصان، كما نصت المعاهدة على تحرير الأسرى المسيحيين في كل من مستغانم و مزغران ولا يمتنع السكان بيع الجنود الأسبان ما يحتاجونه من مواد غذائية وبأسعار محددة، وفي حالة ترميم الحصون أو تطوير وسائل دفاعها يجب على السكان تقديم المساعدة بإعارة حيواناتهم، وأن لا يسمحوا تفريغ أي باخرة في الميناء دون الحصول على إذن من الملك أو الملكة. وكان استسلام مدينة مستغانم في 26 أبريل 1511م.

penon de Angel - حصن البينيون :

بني حصن البينيون على أكبر الجزر المقابلة لخليج الجزائر والمعروفة بجزيرة "سطوفلة" وهي تبعد ب300م على المدينة، وقد بني على أنقاض منارة بناها الأندلسيون نهاية القرن 15م لإرشاد السفن، و مهمة هذا الحصن جعل مدينة الجزائر تحت رحمة الأسبان وإجبار سكانها على تنفيذ بنود المعاهدة، وكذلك منع أي نشاط بحري للأسطول الجزائري مما اجبر السفن على التوجه إلى تامنغوست أو سيدي فرج، كما أقام الأسبان داخل القلعة فرقة عسكرية من 200 جندي مدعمة بالمدفعية، وفعلوا تحول الحصن إلى شوكة مغروسة في قلب المدينة وسكانها، كما عاشت

³¹ Mercier. Ernest. HISTOIRE DE L'Afrique septentrionale. TOME.II. paris.1888. p418.

³² عبد القادر حليبي، مدينة الجزائر، نشأتها وتطورها قبل 1830م. ط1، الجزائر، ص161.

المدينة اضطرابات منذ 1510م بسبب اختلاف الآراء حول مبلغ الجزية التي تدفع للأسبان ووجود حامية قرب المدينة شلت كل حركة تجارية خارجية خنقت المدينة وشجع "سليم التومي" على احترام المعاهدة لأنها توفر الأمن والحماية للمدينة لكن أغلبية السكان كانت آراؤهم مختلفة.

-احتلال عناية 1510م:

بعد احتلال مدينة عناية بقيادة "بيدرو دي نافارو" دون مقاومة تذكر ثم انتقل إلى طرابلس فاستولى عليها رغم المقاومة الشديدة لسكانها وارتكب فيها أبشع الجرائم حيث قتل 6000 مسلم من المدافعين عن المدينة، وبعد احتلالها تنازل القائد الأسباني عنها لنائب الملك في صقلية³³.

أما مدينة تلمسان كانت تعيش تطاحنا عائليا من أجل السلطة و الملك، إذ زج السلطان أبو حمو الثالث الذي أعلن ولاءه للأسبان بآبن أخيه أبي زيان في السجن مما دفع بالسكان إلى الاستنجاد بعروج الذي دخل المدينة ونصب أبو زيان ملكا على تلمسان³⁴، فسارع القائد الأسباني وحاكم وهران إلى التدخل بجيش قوامه عشرة آلاف جندي لاسترجاع تلمسان من عروج وإعادة تنصيب أبي حمو الثالث ملكا ثم فرض على مدينة حصارا عسكريا دام ستة أشهر تضرر أثناءه عروج ورفقاؤه كثيرا بسبب قلة الذخيرة وتناقص عدد جنوده، فقرر اختراق الحصار ليلا لكنه لقي حتفه قرب نهر المالح سنة 1518م مع عدد من جنوده.³⁵

³³ جون وولف، الجزائر وأوروبا.....مصدر سابق، ص36.

³⁴ التلمي محمد بن عبد الله، تاريخ بني زيان.....مصدر سابق، ص79.

³⁵ شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية.....مرجع سابق، ص248.

2/ المحاضرة الثانية: التطور السياسي للجزائر في العهد العثماني

عمل الأتراك العثمانيون منذ أن استقروا بالجزائر على تحديد الرقعة الجغرافية للجزائر التي تطبق فيها قوانينهم السياسية والإدارية، إن الحدود الشمالية والجنوبية قد حددتها الظروف الطبيعية إلا أن الجهتين الشرقية والغربية عرفتا حروبا دامية من أجل تحديدها.

*التقسيم الإداري العثماني للجزائر:

1- دار السلطان.

تعد أهم الباليكات لأنها تشمل مدينة الجزائر وضواحيها وهي مقر الحكم وترتبط مباشرة بالداي يديرها بواسطة الأغا، فهي بذلك مقاطعة إدارية جزائرية خالصة. وللمدينة مجلسا وزاريا يساعد الداي في اتخاذ القرارات المصيرية ويستشيريه ويأخذ برأيه بحيث يتألف هذا المجلس من ستة أشخاص وديوان خاص يشمل موظفين سامين وضباط متقاعدین الذين كانوا يشكلون الديوان الكبير الذي يجتمع أعضاؤه في المناسبات الرسمية والمواسم الدينية³⁶. تمتد دار السلطان من حدود مدينة شرشال غربا إلى مدينة دلس، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى حدود بايليك التيطري غربا، تتكون دار السلطان من فحوص وأوطان وقيادات مثل: وطن حجوط، بني موسى، بني خليل، بني عيشة، وطن يسر، وطن بني جعد، كما تضم دار السلطان بعض المدن الهامة مثل: مدينة الجزائر، البليدة، القليعة، شرشال، دلس، وتنس³⁷.

ومدينة الجزائر هي عاصمة الدولة وعاصمة دار السلطان ومقر الإدارات المركزية، دخلها العثمانيون في سنة استولى عليها ولد القاضي لحوالي خمس 1520م، وفي عام 1519م. وتم اتخاذها عاصمة للبلاد ابتداء من عام 1516.

تعتبر أكبر المدن الجزائرية وتضم أكبر نسبة من السكان عددا وتنوعا. فقد انقسمت من حيث التجمعات السكانية، إلى منطقة الجبل وإلى المنطقة السفلى المنبسطة نوعا، ففي منطقة الجبل أي في أعلى المدينة أين كان يقطنها السكان الأصليون، وإلى المنطقة السفلى المنبسطة التي احتوت على الهياكل التابعة لمصالح الدولة، مثل دار الإمارة والمراكز التجارية والثكنات وغيرها.³⁸

³⁶ شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية،.....مرجع سابق، ص 149.

³⁷ سحيم نسرين، العلاقات بين نظم الإدارة المركزية ونظم الإدارة المحلية بالجزائر العثمانية خلال عهد الدايات 1671-1830، إشراف أ. مرز قلال إبراهيم، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، جامعة محمد بوضياف، مسيلة، مذكرة لنيل شهادة الماستر في التاريخ الحديث، 2020/2019، ص 49.

³⁸ – Shuval, T. La Villed'Alger vers la fin du XVIIIème siècle. population et cadre urbain. Ed. C.N.R.S. Paris 1998.p.991

تحتوي مدينة الجزائر على أكبر ميناء الذي تحصل من خلاله على الجزء الأكبر من الغنائم البحرية و حتى البرية. كما أنها تحصل على الضرائب من كل الجهات على غرار الدنوش و غيرها. ويحيط بمدينة الجزائر وحدات إدارية تدعى بالفحوص يولى عليها قائد ويسمى قائد الفحص. و هي فحوص بوزريعة، بني مسوس، عين الزبوجة، بئر خادم، القبة، الحامة، و تلاوملي، ويحيط بالفحوص وحدات إدارية أخرى تدعى بالأوطان و يولى عليها أيضا موظف يسمى قائد الوطن.

2- بايلك الشرق:

بايلك الشرق يمتد من الناحية الجغرافية من البحر شمالا إلى توقرت و ورقلة جنوبا، و شرقا تحده الإيالة التونسية أما غربا فيحده بايليكاالتيطري يضم مناطق مثل جيجل، بجاية برج حمزة، جبال البيبان، حوض وادي الصومام، جبال البابور، قسنطينة، عنابة، سوق أهراس، قسنطينة، الأوارس، تبسة، الحضنة، الزيبان، واحات بني ميزاب.

*الاطار التاريخي: قام الاخوة بربروس بتحرير مدينة جيجل سنة 1514م من أيدي الصليبيين "الجنوبيين الايطاليين"، ومن هذه المدينة أتجه شرقا نحو مدينتي عنابة و قسنطينة و وضع بهما حامية عسكرية. من الجيش الانكشاري، وقد بلغ عدد جنودها أكثر من 200 جندي انكشاري.. أما عدد جنود حامية قسنطينة بلغ عددها 600 جندي انكشاري.

في سنة 1535م قام حسن بن خير الدين بوضع حامية تركية في مناطق استراتيجية عديدة منها: زمورة، برج بوعرييج، المسيلة، برج حمزة،

تداول على سلطة بايلك الشرق حوالي سبعة وأربعون بايا، وكان أولهم الباي البري "رمضان تشولاق" 1565-1574م وقد أشتهر العديد من هؤلاء البايات نذكر منهم "صالح باي" الذي تولى أمر البايليك وقام بأعمال كبيرة تخلد ذكره غير أن نهايته كانت مأساوية على يد حساده حيث أعدم في عهد الداوي حسين وقد بقيت ذكرى الباي حزينة إلى يومنا هذا عند سكان المدينة.

ومن جهة ثانية، نذكر آخر بايات قسنطينة وهو أحمد باي الذي شارك في معركة سطاولي سنة 1830م، وبعد استسلام الداوي حسين قاد المقاومة الوطنية بمدينة قسنطينة إلى غاية سقوطها في يد الجيش الفرنسي سنة 1837م إلى أن توفي سنة 1850..

3-بايلك الغرب الجزائري

2-1-يقع بايلك الغرب في غرب الجزائر، ويمتد جغرافيا من الحدود المغربية غربا الى حدود باليك التيطري شرقا، ومن البحر الابيض المتوسط شمالا الى الصحراء جنوبا' و من خصائصه أن أنتقلت عاصمته بين أربع مدن على التوالي: مدينة مازونة، معسكر، مستغانم، وهران، وكان أول باي على البايليك "أبو خديجة" الذي أخذ من مدينة مازونة عاصمة له وللبايليك.

تميز بايلك الغرب بعدم استقرار عاصمته بسبب عوامل سياسية أساسا منها الاحتلال الاسباني لمدينة وهران و السواحل الغربية، ووضحت مدينة مازونة عاصمة منذ 1565م.

مع مطلع القرن الثامن عشر اتخذ الباي مصطفى بوشلاغم مدينة معسكر عاصمة للبايليك ثم مدينة وهران بعد فتح وهران الأول م سنة 1708 ا حين زحف الباي شعبان رحمه الله بنحو أربعة آلاف فارس فكان على القتال على أشده، وكان النصر حليف المسلمين. حيث فتحها عنوة على يد صهره و الباي مصطفى بوشلاغم صبيحة الجمعة 26 شوال 1119هـ الموافق 20 يناير 1708م.

في سنة 1732م، لتصبح مدينة مستغانم عاصمة للبايليك بعد إعادة احتلال مدينة وهران من جديد من طرف الأسبان 1732م، بعدها عادت مدينة معسكر عاصمة للبايليك للمرة الثانية إلى غاية التحرير الثاني سنة 1792م /1205هـ-م على يد الباي محمد بن عثمان الكبير والعلماء و الطلبة الذين لعبوا دورا محوريا في إنهاء و جلاء القوات الصليبية عن وهران.

3-بايلك ا لتيطري:

يعتبر بايلك التيطري، أصغر البايليك وأفقرها وأكثر ارتباطا بالسلطة المركزية لقرنها الجغرافي.

يحد بايلك التيطري شمالا الجزائر، و من الشرق منطقة الزاب، ومن الجنوب بلد الجريد، و من الغرب معسكر، و تبلغ مساحته من الشمال إلى الجنوب 70 فرسخا، و من الغرب الى الشرق 40 فرسخا.

ومن مميزات بايليك التيطري عدم وضوح حدوده الجنوبية، وتوجد به سلسلة من الجبال الأطلسية: نذكر منها: زكار سحاري، ازغوس، وفي الجنوب تنتشر جبال الأغواط. كما أن مقر حكمه انتقل ما بين مدينة "المدية و" سيباو"، ثم أصبحت المدية نهائيا عاصمة للبايليك. بعدما انتزعت من البايليك الأخضرية و برج حمزة ". .

● 1-1 مميزات التقسيم الإداري للجزائر خلال العهد العثماني:

التقسيم الإداري العثماني للجزائر كان يحمل في طياته تكوين دولة وطنية رغم ما كان يتصف به من مظاهر خاصة وجوانب سلبية وأخرى إيجابية، فقد كان هذا التقسيم الإداري يتميز بالخصائص التالية:

* لقد كان وسيلة فعالة مكنت الأقلية التركية من التصرف في مقدرات الجزائر في وقت أصبحت فيه الجزائر تتمتع فيه بكيان معترف به دوليا وتمارس استقلالاً حقيقياً في نطاق الرابطة العثمانية التي قوامها المصلحة المتبادلة والروابط الروحية.

* كانت التقسيمات الإدارية للإيالة الجزائرية تستمد من تقاليد محلية كانت متأصلة بالجزائر منذ القديم.

* كان التقسيم الإداري للجزائر يتصف بالمرونة والفاعلية، فهو بسيط في تنظيماته، عملي في إجراءاته يعتمد أساساً على توزيع صلاحيات الموظفين على مختلف المهام حسب ما تقتضيه الحاجة.

* يتميز التقسيم الإداري باحترامه للتسلسل التدريجي للمناصب الإدارية، كما كان هذا التنظيم ذات طابع تركيب هرمي، قمته "الداي" كما يحتل أعلى المراتب الإدارية الموظفون السامون، ويشكل الكتاب الرسميون، الأغاوات، وحكام البايليكات البنية الأساسية في التقسيم الإداري، ومن جهة أخرى استحدث العثمانيون "مؤسسة الديوان" التي تمثل الجهاز الإداري والسياسي في الإيالة³⁹.

وفي ظل الحكم العثماني أصبحت مقراً للإدارة المالية "الدفتردارية" لكل من طرابلس و تونس، وهو الدافع لنشوب الحروب المتتالية بين البلدين، وبقي حكام الجزائر يعتبرون تونس إقليماً تابعاً لحكمهم⁴⁰.

³⁹ ناصر الدين سعيدوني، الجزائر في التاريخ العثماني، ج 4، المؤسسة الوطنية للكتاب،

⁴⁰ Kaddache L'Algérie durant la période ottomane. O.P.U. Rempression. 1992. p. 108.

***2-1: الديوان وهيئاته وموظفوه: (الديوان أو مجلس الحكومة)**

أضحى الديوان أهم مؤسسة على مستوى الحياة السياسية ابتداء من مطلع القرن السادس عشر الميلادي إذ أن جل القضايا المتصلة بالسياسة الخارجية والأوامر السلطانية كانت تعرض على الديوان، ونظرا لأهميته فإن الحكام العثمانيين كانوا يعينونه في كل إيالة من إيالات الخلافة العثمانية⁴¹.

يعود تأسيس الديوان إلى خير الدين بربروس مثلما ذكره الأسير الإسباني "هايدو"، انقسم الديوان إلى هئتين سياسيتين وهما: 1-

1/الديوان الصغير(الخاص): الذي ضم كبير ضباط الانكشارية وعددا من الموظفين الكبار ويرأسه الباشا، الذي كان يمسك السلطتين التشريعية والتنفيذية في آن واحد دون تدخل هيئة الديوان الكبير.

في عهد الدايات كان يجتمع الديوان الخاص بقصر الباشاوات أربع مرات في الأسبوع لحل القضايا الداخلية والاستعجالية بتفويض من رئيس الجلسة ويضع أعضاء المجلس شريطا ذهبيا يزين مقدمة عمائمهم كرمز لمكانتهم.

ومن قوانين الداخلية للديوان الخاص:

عدم حمل الأسلحة خلال انعقاد الجلسات.

التشاور والتفاهم باللغة العثمانية مع حضور مترجم كرغلي.

مبدأ الحوار والمناقشة حسب السلم الوظيفي والعسكري.

في حالة الاختلاف في الرأي حول القضية المطروحة يكلف الداوي "آغا العسكر" بحلها، ويختتم الداوي الجلسة، فهو صاحب الصلاحية ويكون بلفظ "شرع الله" ويردها بعده باقي الأعضاء⁴².

⁴¹ OP.CIT. P220.

⁴² عائشة غطاس وأخريات، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، طبعة خاصة، وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007، ص --ص112-113.

3-1: الديوان الكبير (الديوان العام):

هو مجلس موسع وعبرة عن مجلس تشريعي له صلاحية مراقبة حكومة الداي، وأعضاؤه من كبار الضباط عددهم حوالي ثمانين عضوا بالإضافة إلى أعضاء الديوان الصغير الذي يتكون الموظفون الساميين وكلهم عثمانيين⁴³ وتجري الاجتماعات في دار الإمارة كل يوم السبت، ولا يجتمع إلا في القضايا الهامة الإيالة كالحرب والسلام واتخاذ القرارات في جميع القضايا⁴⁴

ولا يمكن أن يصبح الموظفون أعضاء في الديوان إلا إذا توفرت فيه الشروط التي ينص عليها القانون، ويبرهن عن الخبرة والمقدرة، وأن يكون قد عمل في الجيوش البرية والبحرية ولذلك فإن جميع أعضائه تقريبا متقدمين في السن ومتزوجين من الأهالي⁴⁵

-أن يبرهن عن خبرة و مقدرة مكتسبة من شيخ البلدة و نقيب الاشراف .

-أن يكون قد عمل في الجيوش البرية و البحرية.

-أن يكون متزوجا.

*ب-الديوان الصغير: كان المساعد الأيمن لرئيس الدولة إذ يظم الشخصيات المقربة إليه والتي يعتمد عليها في تنفيذ سياسة الحكومة التي يقودها، والديوان هم بمثابة مجلس الوزراء ويعقد اجتماعاته في قاعة مرصعة بالمرايا يوميا لدراسة السائل العادية المسجلة في جدول أعماله، أما اجتماع يوم السبت فكان يخصص لدراسة المسائل ذات الأهمية وكانت دوراته تتسم بالمساواة الكاملة لأعضائه في المناقشة والتصويت إذ يتم العمل بانتظام سريع وكل القرارات تسجل.

يتكون الديوان الصغير من 35 شخصية مدنية وعسكرية تشرف على تسيير شؤون الدولة في المسائل المالية و العدالة والأمن، بالإضافة إلى القاضي والمفتي وغيرها من الشخصيات المرموقة المختارة بعناية من العائلات الشريفة

⁴³ ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية. دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000م، ص219.

⁴⁴ حمدان خوجة، المرأة، ترجمة: محمد العربي الزبيري، د. ط. المؤسسة الوطنية للفنون، المطبعة الجزائرية، 2006، ص56.

⁴⁵ حمدان خوجة، المرأة.....مصدر سابق، ص83.

التي تساعد الرئيس في مهامه والسهر على نظام الدولة وديمومته، وهؤلاء الموظفون يتفرغون بدورهم بحكم مهامهم وصلاحياتهم إلى جماعات أخرى من الموظفين الصغار والمصالح نذكر منهم:

1/ الداي:

هو المسؤول الأول على الجهاز الإداري في حكم إيالة الجزائر، ويعتبر الممثل الشرعي للسلطان العثماني، كما

يعد الرجل الوحيد المخول له التوقيع على الوثائق الرسمية⁴⁶

أما عن كيفية اختيار الداي فكانت تتم في إطار الأوجاق، بحيث لم يكن لغير المنتسبين للحامية التركية أي دخل في تعيينه أو ترشيحه من قريب أو بعيد، وهو عادة ما يختار من بين ثلاثة موظفين سامين وهم على التوالي:- الخزناجي، - آغا العرب، - خوجة الخيل،⁴⁷ وقد كان اختيار دخل في الحد من سلطة ونفوذ الدايات ولا سيما وأن التقاليد المتوارثة والقوانين المعمول بها جعلت الداي حسب وصف الرحالة الأجانب: "مستبد وليس الحرية، ارسقراطي لكنه محروم من أرباح القرصنة،"⁴⁸

وبما أن الإيالة لم يكن لها القانون الشرعي في الاستخلاف، فان انتخاب أي من الدايات يتطلب التأكيد من طرف السلطان، وكان هناك مرسوم يبعث به بعد الانتخاب مباشرة إلى القسطنطينية ليطلب مثل هذا التأكيد، وكانت هذه المطالب مستجابة دائما وفي كل مرة، كان هناك كاسي باشي "مبعوث الدولة" يذهب إلى الجزائر حاملا نسخة من فرمان التأكيد وقفطانا احمرًا وسيفا من الدولة يستخدم كاعتراف رسمي من طرف السلطان بالمنصب.⁴⁹

وعندما يموت الداي "يجتمع الديوان كما تنص على ذلك القوانين، ومن توفرت فيه جميع الشروط الضرورية يتم انتخابه، بعد ذلك يؤدي اليمين القانوني ويحتفل بتعيينه، وبعد انتهاء عملية التنصيب يكلف أحد الأشخاص "آغا الهدية" بالذهاب إلى الباب العالي للإخبار عن وفاة الباشا القديم وقيام الديوان بانتخاب حاكم جديد، وبهذه المناسبة تكتب رسالة تحمل إمضاء وختم كل واحد من أعضاء المدينة على هذا الاختيار ويشهدون على مقدرة الشخص المعين.

⁴⁶ عائشة غطاش وأخبارات، الدولة الجزائرية الحديثة، مرجع سابق، ص 118.

⁴⁷ صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، 1514-1830، ط2، دار هومة، الجزائر، 2002، ص 123.

⁴⁸ نفسه، ص 125.

⁴⁹ نفسه، ص 126.

يتمتع "الداي" بحكم مطلق لا يحد من نفوذه سوى القادة العسكريين الكبار والموظفون السامون، فهو يسهر على حفظ الأمن والحد من المتمردين، وقمع حركة عصيان القبائل، وضمان استخلاص الضرائب، ومراقبة النشاط الاقتصادي لصالح الجهاز الإداري.

ومنذ انتخابه ينفصل عن أهله ويحظر عليه أن يحيا حياة عائلية في منزله الخاص سوى ليلة واحدة في الأسبوع ثم يعود إلى القصر لاستئناف عمله، ويتقاضى راتبه على أساس رتبته العسكرية في الجيش بصفته آغا، ومن جهة أخرى، يمكنه أن يتحصل على أموال إضافية ومساعدات تتمثل في الهدايا والأموال التي تأتيه عن طريق تعيين الوظائف والمساعدات، وغرامة العقوبات من القراصنة، وفدية الأسرى، وعائدات السفراء وهدايا القناصل، وإذا قتل الداي تصادر الحكومة أمواله⁵⁰.

2/ الخزناجي:

يشرف على خزانة الدولة من خلال مراقبة خزانة الدولة من حيث استلام المداخل التي كانت تصل من مختلف أنحاء البلاد سواء كانت عينية أو أشياء أخرى ثمينة، ولا يمكن أن تفتح الخزانة إلا بحضوره لأنه الوحيد الذي يحتفظ بمفاتيح الخزانة العامة⁵¹، كما يقوم بتسليم المداخل ويشرف على الانفاق، ويراقب السكة، ويساعد في مهامه أمين السكة وبعض الموظفين، وعادة ما كان يتم تعيين الخزناجي من قبل الداي وأعضاء الديوان ويخضع ترشيحه لاعتبارات منها أن يكون مخلصا ومواليا لهم⁵².

3/ آغا المحلة:

هو الوزير الثاني والقائد الأعلى للحرب البرية، وأنه مكلف بإعادة الحرب والإشراف على الفرسان، وهو الذي يترأس عادة الحملات الموجهة ضد القبائل الثائرة⁵³.

⁵⁰ صالح عياد، الجزائر خلال الحكم التركي مرجع سابق، ص 126.

⁵¹ قنان جمال، نصوص ووثائق في التاريخ الجزائري الحديث 1500-1830، المؤسسة الوطنية للطباعة، الجزائر، 1987، ص 106.

⁵² نصوص ووثائق في التاريخ الجزائري الحديث مرجع سابق، ص 119.

⁵³ نفسه، ص 120.

4/خوجة الخيل:

هو الوزير الثالث ومن المرشحين لتولي منصب الداي، وتتمثل مهامه في الإشراف على مداخل الأراضي التابعة للبايليك والمسؤول على أحيائها وإصلاحها، كما يشرف على ما يقدمه البايات عينا من خيول ومواشي الى دارالإمارة الأمر الذي جعل سلطته تمتد إلى عرب الصحراء، كما يراقب العلاقات بين العاصمة و الولايات.⁵⁴

5/بيت المالجي أو الناظر على مؤسسة بيت المال:

يعود منصب بيت المالجي أو الناظر على شغل الموارث المخزنية، وبيع ما هو على ملك بيت المال من الدور والأراضي والأجنة داخل الجزائر وخارجها، ومراقبة تركات أو مخلفات جميع من يتوفى دون عقب، أو دون عاصب، ومن يطول غيابه كالأسرى فيعدون بذلك في عدد الموتى أو غريب أو مجهول، ولا يؤذن بدفن أي ميت إلا بأمر من بيت المالجي الذي يشرف في الواقع على إحدى أهم المؤسسات القائمة بمدينة الجزائر وقتئذ وهي مؤسسة بيت المال.⁵⁵ وعند وفاة البيت المالجي فإن جميع أمواله والثروات المتوفرة لديه تذهب الى خزينة الدولة، يساعد البيت المالجي في مهامه الإدارية قاض، و موثقان، وكاتب ضبط ومسجلون، وهي هيئة تشرف على مراقبة تركات ومسجلون ، وإذا كانت هناك وصية ينفذ محتواها بعد تسجيلها والتأكد من صحتها وعندئذ يؤذن بحمل الميت ويذهب الموثقان الى محل سكناه يقيدان جميع الأشياء الموجودة وتحفظ الى حين توزيعها على الورثة وأن كان الميت أجنبيا مجهولا أو من المتغييبين، فإن هذه الهيئة تمثلهم، فتبيع التركة بالمزاد العلني وتحفظ بالقيمة كوديعة مقدسة بعد خصم المصاريف 10 بالمئة، ويودع المبلغ في الصندوق العمومي بعد أن يسجل مقداره في ثلاثة سجلات ولا يستطيع أحد أن يتصرف فيه إلا بأذن شرعي، وتعتمد قوانين بيت المال على مبادئ الشريعة الإسلامية، ولا يستطيع أحد من الأشخاص التصرف في الأموال المودعة استنادا الى ذلك.⁵⁶

⁵⁴ ناصر الدين سعيدوني، موظفو الإيالةمرجع سابق، ص 220.

⁵⁵ ناصر الدين سعيدوني، موظفو الإيالةمرجع سابق، ص 220.

⁵⁶ خوجة، حمدان، المرأة، تقديم و تعريب وتحقي: العربي الزيري محمد العربي، ط2، الشركة الوطنية للنشر والاشهار، الجزائر، 1982، ص 127.

6/وكيل الحرج أو وزير البحرية:ارتبطت مكانته بنشاط الغزو البحري، وكان أحد أبرز الموظفين السامين
وحيثما تقهر الغزو البحري فقد مكانته، وكان تحت إدارة وكيل الحرج كل ما يتصل بشؤون البحرية والغزو البحري
والتسلح والذخيرة والعلاقات الخارجية، ويخضع لسلطته الأميرال أو القبطان وقائد الميناء والحراس ورياس البحر⁵⁷.

*7-الأغا: هو قائد الجيش البري، أو أغا عسكري أو قائد فرق الوجاق والفرق المتطوعة والصبايحية، يتلقى
أوامره مباشرة من الداي، كما يتولى مراقبة قيادات متيجة والساحل والأوطان ودار السلطان.⁵⁸

8-*أغا العرب:وزير مطلق الصلاحية، يحتل المرتبة الثانية في سلك الموظفين السامين لكونه قائد الفرق
الانكشارية، وفرسان المخزن خارج المدينة، إضافة إلى الموظفين المساعدين وهم:

2-1.*-الخوجة باشي: أو الكاتب الأول أو المكتابجي: وهو المكلف بفرض الضرائب والمحافظة على سجل

المحاسبات.

2-2.*-الكاتب الثاني أو دفتر دار: مكلف بتسجيل دخل دفتر البلاد، وحق مراقبة مخازن الدولة.

2-3.*-الكاتب الثالث أو وكيل الخرج الصغير: وهو مهتم بسجلات القائمة بالغنائم للبحر.

2-4.*-الكاتب الرابع الرقمجي: وهو مكلف بمصالح البايليك متصلة بشؤون الخارجية للبلاد.

ثانيا: -مجموعة الخواجات:

الذين كثر عددهم وتنوعت مهامهم حتى بلغوا في بعض الأحيان ثمانين خوجة، منهم خوجة القصر، أوخوجة
الباب الذي كان يتلقى الهدايا ويتوسط في إسناد المناصب وقضاء الحاجات، وكذلك خوجة القمرك "الديوانة" وخوجة
الرحبة "المكاس" وخوجة مخزن الزرع، وخوجة الزرع، وخوجة الملح، وخوجة الجلد وخوجة الفحم، وخوجة العيون،
وخوجة الوزن، بالإضافة إلى خوجات أبواب المدينة والمنازل والدكاكين وغيرها من المصالح العامة⁵⁹.

ثالثا: -مجموعة القياد:

⁵⁷ نفسه، ص222.

⁵⁸ نفسه، ص223.

⁵⁹ ناصر الدين سعيدوني، موظفو الإيالةمرجع سابق، ص220.

أغلبهم كانوا يتلون الإشراف على شؤون البوادي "الأوطان" ويقومون بإقرار الأمن واستخلاص الضرائب من سكان الأرياف بالرجوع إلى شيوخ والدواوير الأعراش والاستعانة بفرسان المخزن وفرق الحامية التركية، والقليل منهم كان يشرف على سير الخدمات الاجتماعية داخل المدن، مثل قائد العبيد، قائد الشوارع، قائد الزبل "القمامة"⁶⁰.

رابعاً: -مجموعة الحكام:

يعود إليهم حكم المدن، ويكلف البعض منهم بالقيام ببعض المهام مثل مراقبة جمع الضرائب بالاستعانة بالرؤساء المحليين وأمناء المهن والطوائف، والسهر على إقرار الهدوء، وتنفيذ الأحكام بالحواضر، وقد توسعت صلاحيات بعض الحكام فأصبحوا يشرفون على شؤون كثير من العشائر مثل عشائر منطقة البرواقية، وقد تزايدت الصلاحيات الإدارية لهؤلاء الحكام في أواخر العهد العثماني حتى يعينون مباشرة من طرف الداي مثل حكام المدينة ومليانة وتلمسان، وأصبحت أمور النقابات المهنية والطوائف العرقية تعود إليهم مباشرة.⁶¹

خامساً: -مجموعة الضباط المتقاعدين:

كانوا يشكلون مجلس الوجاق "الديوان الكبير" وعلى رأسهم الكاهية، أو البلوك باشي الذي يتولى منصبه الشرفي لمدة شهرين قمريين مما أكسبه لقب "آغا الهالين"، ثم يصبح بعد هذه الفترة القصيرة معزول آغا، وأثناء توليه لمنصبه المؤقت كان يقوم الآغا الهالين بالإشراف على فرق الحامية التركية بمدينة الجزائر⁶² والموزعة على سبع ثكنات "قشلات" ويتأخر مجلس الضباط، ويقوم بتوزيع الوراتب "العلوفات" ويحق له الجلوس مكان الداي أثناء توزيعه الجرايات على الجند، كما يحق له معاقبة الأتراك عند صدور الأحكام بشأنهم في منزله الخاص بعيداً عن أنظار السكان الآخرين من غير الأتراك. ونظراً لكون منصب الآغا الهالين لا يسمح لصاحبه أن يستمر فيه أكثر من شهرين فان كثيراً من الآغاوات والبلوك باشيات ارتقوا إلى هذا المنصب السامي حتى أصبحوا في عام 1161هـ/1748م يعدون بثلاثمائة معزول آغا.

⁶⁰ نفسه، ص 221.

⁶¹ ناصر الدين سعيدوني، موظفو الإيالةمرجع سابق، ص 223.

⁶² نفسه ، ص 222.

سادسا:-مجموعة الخدم والشواش:

يلغ عددهم أواخر العهد العثماني أثني عشر شاشا وعرف كل واحد منهم بالعمل الذي يقوم به، مثل أشجي باشي "كبير طباشي قصر الداى" الذي كان يحظى بثقة الداى وينال الهدايا المغرية، والباش سيار المكلف بالبريد، والباش سايس القائم على إسطبلات البايلىك، والسركجي المشرف على السجون، وأغا العزرة الذي يتولى معاقبة الأتراك المحكوم عليهم من طرف الداى، يضاف إلى هذه المجموعات العديد من صغار الموظفين القائمين على الخدمات الاجتماعية بالمد مثل: شيخ البلد الذي يتصل بالطوائف السكانية بالمد عن طريق أمنائها ويتصرف في النقابات المهنية باستخلاص ما يتوجب من رسوم و عوائد، ويبلغ أوامر البايلىك إلى مختلف الطوائف والجماعات العرقية والمهنية كالعلماء، والحرفيين والوافدين على المدينة من سكان الريف"⁶³.

سابعا:- الشيخ الناظر:

كان يشرف على الأعباس ويرجع إليه وكلاء الأوقاف في جميع ما يتعلق بالأموال الموقوفة، وتوجيه منه يتم تسديد النفقات والمصاريف المترتبة على الأوقاف واستخلاص ما يعود منها إلى بيت المال"⁶⁴.

ثامنا:-المحتسب أو صاحب الشرطة:

كان يراقب كل ما يباع في الأسواق والدكاكين من مأكول ومشروب و ملبوس ومصنوع، حسب أحكام القضاء والإفتاء، وغالبا ما يتجول في الأسواق وهو حامل الميزان لمعاينة نوعية وكمية المعروضات في الأسواق والتأكد من عدم تحايل التجار وتدليسهم ومن التزامهم بتحديد الأسعار وضبط المكاييل والموازين، وينال مقابل عمله هذا نسبة معينة من ثمن البضائع الواردة في السوق"⁶⁵.

تاسعا:-المزوار:

⁶³ نفسه، ص223

⁶⁴ خوجة، حمدان، المرأة، تقديم وتعريب وتحقي:.....مصدر سابق، ص130.

⁶⁵ نصوص ووثائق في التاريخ الجزائر الحديثمرجع سابق128.

الذي يعرف في قسنطينة بقائد القصبة يطبق العقوبات الجسدية وينفذ حكم الإعدام بأمر من الداي في غير الأتراك، ويراقب أهل الدعارة، ويسهر على أمن الشوارع في الليل و النهار، ويراقب بعض السجون، وعادة ما يساعده في عمله الشاق بعض الأعوان من الحرس مثل السركجي وقائد الفحص.⁶⁶

عاشرا: -الدلال و البراح:

الأول ينادي على البضائع في الأسواق مقابل درهم عن كل دينار، والثاني يعلن عن أوامرو قرارات السلطة الحاكمة ويشهر بالمجرمين و اللصوص والمحتالين.. وهذا النظام الإداري الذي تركز في مدينة الجزائر وإقليم دار السلطان كان يماثل النظام الإداري المعمول به في بقية المقاطعات الأخرى مثل قسنطينة وهران وبابليک التيطري. ورغم اختلاف أوضاع البايليكات الثلاث إلا أن المناصب الإدارية والصلاحيات التنفيذية كانت تتشابه، فالباي في كل البايليكات كان يقوم بالمحافظة على الأمن وإقرار الهدوء والحيلولة دون انتفاضة وعصيان القبائل بالأرياف، كما كان يتكفل بدفع أجور الحامية التركية الموجودة بمركز البايليک الذي يحكمه مع الاهتمام بالمرافق العامة بالمد الكبرى التابعة له، وتأمين الطرق وإبقاء الاتصال بمركز السلطة بالجزائر، بالإضافة إلى حرصه البالغ على ضمان موارد قارة لخزينة البايليک وتوفير مبالغ ضخمة يبعث بها فصليا إلى الجزائر مع خليفته ما يعرف "بالدنوش الصغرى" أو يتوجه بها هو شخصا ليسلمها للداي وحاشيته كل ثلاث سنوات أو ما يعرف "بالدنوش الكبرى".⁶⁷

⁶⁶ ناصر الدين سعيدوني، موظفو الإيالةمرجع سابق ص220

⁶⁷ ناصر الدين سعيدوني، موظفو الإيالةمرجع سابق ، ص224.

3/ المحاضرة الثالثة: -العلاقات الدولية للجزائر في التاريخ الحديث:

-*أولا: -مع الإمبراطورية العثمانية:

خلال القرن التاسع عشر الميلادي صارت تبعية الجزائر للإمبراطورية العثمانية تبعية اسمية فقط، وأصبحت الإيالة الحق في تعيين الداي وإدارة البلاد وبالتالي حظيت الجزائر باستقلالها عن السلطان في قضاياها الخارجية مقابل الطاعة الروحية والولاء للسلطان وأصبحت الرابطة بينهما أشبه ما تكون برابطة الأحلاف، فكانت بذلك قوة الجزائر في قوة الخلافة، وقوة الخلافة في قوة الجزائر، فلا غرابة بعد ذلك أن تكون العلاقة الحميمة قائمة على الثقة المتبادلة والاحترام المتبادل⁶⁸

ويؤكد تشالر هذه العلاقة بقوله: "... والأرجح أن الحكومة العثمانية قد تنازلت للحامية التركية عن حقها في تعيين وخولت لها حق انتخاب الداي مع الاحتفاظ للسلطان بحق تأكيد الاختيار بتوجيه القفطان والسيف للداي الجديد رمزا لتزويد بالسلطة."⁶⁹، أما تنصيب الداي رسميا لا يقع إلا بعد وصول تأكيد لانتخابه مع مستلزمات السلطة مثل القفطان التقليدي وسيف الدولة، والذي يحمله مبعوث الخلافة العثمانية أو (قبجي باشي) ويكون ذلك بأسرع ما يمكن⁷⁰

مرت العلاقات بين الجزائر والباب العالي بمرحلتين هامتين:

***المرحلة الأولى:** أو ما يعرف بالارتباط الكلي: 1519م-1711م:

تبدأ من تاريخ الإلحاق 1519م وتنتهي سنة 1711م، تميزت هذه المرحلة بالارتباط الكلي للجزائر بالدولة العثمانية عندما قام الباب العالي بتعيين حكام الجزائر من خلال إرسال شخصيات ذات ثقة من طرف السلاطين ووزراء الباب العالي، فقد أصبحت الجزائر قاعدة عسكرية متقدمة في غرب المتوسط، ومن أهم -مظاهر التعاون بين الجزائر والدولة العثمانية نذكر:

⁶⁸ بسام العسلي، الجزائر والجمالات الصليبية، ط3، دار النفائس، بيروت، 1986، ص161.

⁶⁹ شالار، المذكرات.....مصدر سابق، ص41.

⁷⁰ نفسه، ص47.

*1-تبادل الهدايا:

تبادل الهدايا بين الدولة العثمانية والجزائر يعتبر أرضية صلبة يبنى عليها جسر العلاقات التي ظلت قائمة بين الجانبين، حيث كانت الهدايا التي تقدمها الجزائر إلى الدولة العثمانية تمثل مظهرا من مظاهر الارتباط بالدولة العثمانية⁷¹

-اتخذ تبادل الهدايا بين الطرفين أهمية تاريخية وترسخت كتقليد على كل والي جديد تعبيراً عن العلاقة والولاء واعترافاً بتبعية الجزائر للدولة العثمانية⁷²

*2-العملة:

تمثلت في ضرب السكة باسم السلطان العثماني التي تعتبر إحدى شارات الخلافة الرئيسية، فقد حرص الدايات دائما على حق السلطان وذلك بضرب عملة باسمه وهي عبارة عن نقود ذهبية وفضية تحمل اسم السلطان العثماني، ومنها: الدينار الذهبي، والدينار السلطاني الذي يحتوي على نقوش تشير إلى أسماء السلاطين الدولة العثمانية تعبيراً على مظاهر التبعية⁷³

*3- العلم : رمز التبعية السياسية للدولة العثمانية وظل العلم الجزائري منذ القرن السادس عشر رمزا للتبعية السياسية والولاء الديني للدولة العثمانية،

*ثانيا: العلاقات العسكرية:

القوة العسكرية للجيش الانكشاري كان بقاء السلطة العثمانية بالجزائر مرهون بقوة أوجاق الانكشارية الذي شكل عماد الجيش النظامي للإيالة⁷⁴

⁷¹ فاطمة الزهراء سيدهم، موارد الإيالة المالية في مطلع القرن التاسع عشر، مجلة كان التاريخية، العدد:19، 2011، ص27.
⁷² خليفة حمّاش، العلاقات بين الجزائر والباب العالي 1798-1830م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الإسكندرية، 1985، ص147.
⁷³ محمد جحيش، تاريخ الجزائر من خلال المسكوكات د. ت. تلمسان، 2010، ص209.
⁷⁴ أمين محرز، الجزائر في عهد الأغاوات- 1659/1671م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية الاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر، 2008/2007، ص25.

بالإضافة إلى الجيش الاحتياطي الذي كان تحت تصرف السلطة كلها كانت بحاجة إلى خدماته"⁷⁵، وقد قام الجيش الانكشاري بدور مشرف في الدفاع عن الجزائر وقد صد الغارات الخارجية المتكررة عليها، وأظهر شجاعة نادرة في القتال ووفاء للوطن، وقد انحصرت قوة الانكشارية في الدفاع عن البلاد من الأخطار الخارجية والمحافظة على الأمن الداخلي عن طريق تأسيس الحاميات العسكرية"⁷⁶

تمثل في مساهمة البحرية الجزائرية إلى جانب الدولة العثمانية في حروبها ضد الأعداء الصليبيين، ومن أهمها: معركة "ليبانت" في 09 أكتوبر 1571م ضد الحلف المقدس المكون من اسبانيا المسيحية، والبندقية، الحرب الروسية العثمانية سنة 1787م حيث كان للأسطول الجزائري مشاركة قوية ومساهمة بطولية"⁷⁷

إن قوة الأسطول الجزائري خلال العهد العثماني جعلت منه مؤسسة قائمة شكلت محورا أساسيا كقوة بحرية في البحر المتوسط حيث كان اهتمام رياس البحر بالدرجة الأولى قائما على نصرته المسلمين الأندلسيين الفارين من بلادهم من ظلم الأسبان والكنيسة الصليبية والقضاء على التجارة الاسبانية في المتوسط وإضعافها، وتكللت أعمالهم بالنصر والنجاح وأثبتوا وجودهم حتى النهاية"⁷⁸.

تمثل في مساهمة البحرية الجزائرية إلى جانب الدولة العثمانية في حروبها ضد الأعداء الصليبيين في إطار الجامعة العثمانية الإسلامية، ومن أهمها: معركة "ليبانت" في 09 أكتوبر 1571م ضد الحلف الأوروبي المقدس وحرب انفصال اليونان 1821-1828م والحرب الروسية العثمانية سنة 1828م حيث كان للأسطول الجزائري مشاركة قوية ومساهمة بطولية"⁷⁹.

1- حرب انفصال اليونان: 1821/1827. أخذت الحرب طابعا انفصاليا وأبعادا دولية من خلال وجود مؤامرة أوروبية صليبية واسعة من الشرق والغرب الأوروبي ضد الدولة العثمانية.

⁷⁵ خليفة حماش، العلاقات بين الجزائر.....مرجع سابق، ص 107.

⁷⁶ عزيز سامع ألتز، الأتراك لعثمانيون في إفريقيا الشمالية، ط1، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1989، ص 97.

⁷⁷ مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830م، ج1، دار الأمة، الجزائر، 2007، ص 81.

⁷⁸ عزيز سامع ألتز، العثمانيون الأتراك.....مرجع سابق، ص 149.

⁷⁹ مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830م، ج1، دار الأمة، الجزائر، 2007، ص 81.

أخذت الحرب بعدا وطنيا عندما انفجرت الثورة القومية ضد الحكم العثماني في شبه جزيرة المورة يوم 12 فبراير 1821م وبتحريض من روسيا القيصرية والنمسا ذات المذهب الأرثوذكسي المسيحي، وأمام اتساع هذه الثورة الانفصالية في معظم شبه جزيرة المورة، طلب السلطان العثماني المساعدة العسكرية من حلفائه الأساسيين المسلمين، من محمد علي باشا، ومن داي الجزائر الذي لم يتوان في تقديم العون العسكري والوقوف إلى جانب

الخلافة العثمانية⁸⁰، وبناء على النداء من السلطان أمر الداي حسين بتجهيز ستة سفن حربية وعين على رأسها "الحاج علي أرناؤوط" قائدا بتاريخ 1263هـ/1820م وبذلك كانت أول مساهمة عسكرية للجزائر في عهد "الداي حسين باشا" منذ تعيينه على رأس الحكومة الجزائرية سنة 1818م وبذلك التحقت السفن الجزائرية بالأسطول العثماني بميناء "كمنيسة" بألبانيا، وتعززت هذه السفن بثلاثة سفن حربية أخرى عام 1238هـ/1823م على متنها 850 بحارا وكلفت هذه المساهمة العسكرية الخزينة المالية 123.867 قرشا وهي عبارة عن نفقات البحارة من إطعام ومرتبات ولباس وإصلاح سفن وشراء التجهيزات⁸¹

دامت المساهمة الجزائرية الأولى في المواجهة العسكرية سنتين وثلاثة أشهر بداية من سنة 1821 إلى غاية 1824م استطاعت الجزائر خلال هذه المشاركة تأكيد عمق العلاقات بين الجزائر والسلطان العثماني في الإطار الإسلامي وردا على الإدعاءات الأوروبية والتشكيك في القدرات العسكرية الجزائرية على أنها قوة عادية أخذت أكثر من حجمها الحقيقي⁸².

انتهت الحرب في نافارين "بمعركة شرسة، لم يبق للأسطول الجزائري سوى عدد قليل من السفن الحربية، منها سفينتان: "مفتاح الجهاد"، و "نفارا اسكندر".

2- الحرب العثمانية- الروسية 1828م.

قامت روسيا القيصرية بإعلان الحرب ضد الإمبراطورية العثمانية بسبب الأطماع الروسية المتزايدة في أملاك الرجل المريض بسبب الضعف الكبير الذي أضحت تعانيه الخلافة العثمانية وفرضت عليها معاهدات منها : معاهدة قينارجة 1774م، ومعاهدة بوخارست 1812م تضمنت بنودا تتعلق بحرية الملاحة البحرية للسفن الروسية في كافة الموانئ العثمانية، وكذلك تتعهد الامبراطورية في منع رعايا شمال إفريقيا من الإغارة على السفن الروسية في البحر الأبيض

⁸⁰ خليفة حماش، العلاقات بين الجزائر.....مرجع سابق، ص112.

⁸¹ خليفة ابراهيم حماش، الجزائر والحرب اليونانية العثمانية، 1821/1827م، م. ت. م.، العدد: 65، تونس 1992، صص-175-185.

⁸² نفسه، ص114.

لقد خاضت السفن الحربية الجزائرية معارك بحرية كبيرة ضد سفن الأسطول الروسي القوي، وحققت انتصارا على البحرية الروسية القوية أورلوف، ومن جهة أخرى، أن الأسرى الروس بالجزائر كان عددهم كبيرا وكانت الجزائر دائما ترفض إطلاق سراحهم وإخلاء سبيلهم إلا بعد دفع الحكومة الروسية أموالا مقابل ذلك⁸⁴ وهذه الأعمال العسكرية و الحربية تدخل التعاون العسكري والتأييد السياسي والعاطفي للجزائر اتجاه الدولة العثمانية

*المرحلة الثانية: أو ما يعرف بفك الارتباط 1711-1830م.

تصرف دايات-الباشاوات وفق المصلحة الجزائرية من خلال الانفصال سياسيا عن الباب العالي مع الإبقاء على الروابط التاريخية والدينية التي تجمع الجزائريين بالسلطان العثماني خليفة المسلمين⁸⁵ وبخاصة السياسة الخارجية، وقد تصرفت الجزائر كدولة ذات سياسة كاملة ورغم ذلك مازال يتمتع السلطان عند الجزائريين بمكانة قوية في قلوبهم، وهذا ما تأكد عندما شاركت الجزائر حروب الدولة العثمانية المختلفة مثل: الحروب الروسية-العثمانية 1759-1764م، حروب الانفصال اليونانية 1821-1827م والحرب الروسية 1828م، ورغم المساهمة العسكرية والدور الايجابي لحكومة الجزائر ووقوفها إلى جانب الباب العالي إلا أن الخلافات بين الطرفين استمرت بينهما خاصة في قضايا استيلاء الأسطول الجزائري مثل السفن اليونانية استولت عليها البحرية الجزائرية مما جعل الباب العالي يرفض هذا العمل.

سمحت الخلافة العثمانية للجزائر بحرية التصرف في شؤونها دون التدخل المباشر من طرفها، وفي المقابل تمسكت الجزائر بقوة علاقاتها مع الباب العالي ضمن الرابطة العثمانية الإسلامية التي يقرها الدين الإسلامي واعتمادا على التحالف المعنوي القوي الذي أقامه الجزائريون مع السلطان العثماني سليم الأول عام 1519م عندما أنظمت الجزائر إلى هذه الرابطة بكل حرية.

⁸³ محمد علي صلاحي، الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط1، مصر 2001، ص361.

⁸⁴ خليفة حماش، العلاقات بين الجزائر.....، ص246.

⁸⁵ سيمون بفايفر، مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر، تقديم وتعريب، العيد دودو، ش.و.ن.ت.الجزائر، 1974، ص45

لم تكن علاقات الجزائر بإيالة تونس حسنة وودية على مر الفترات التاريخية بل كانت سيئة في كثير من الأحيان بسبب أن باشاوات الجزائر يعتبرون تونس إقليمًا تابعًا لهم وأن تعيين باشاوات تونس من اختصاص بلديات الجزائر، وعلى هذا الأساس كانت الجزائر تحاول باستمرار أن تجعل هذه التبعية حقيقة ملموسة، في حين كانت تونس ترفض ذلك وترى أنها إيالة عثمانية مثل الجزائر وأكثر من ذلك كان لتونس أطماعًا في إقليم قسنطينة منذ العهد الحفصي.

تجددت المواجهات العسكرية بين الإيالتين المغربيتين الجزائر وتونس سنة 1590م و1695م و1705م حين قامت تونس بقطع الإتاءات السنوية التي كانت تؤديها للجزائر تتألف مقدار من المال ومقدار من الزيت والسمن والصابون، ولم تفلح وساطة السلطان العثماني في تخفيف من حدة الخلاف والصراع بين البلدين⁸⁶.

في سنة 1684م عرفت مدينة الجزائر اضطرابات، قيل أن باي تونس هو الذي كان وراءها من خلال عملائه، وفي هذه الاضطرابات أضطر الباشا "ميزومورطو" خوض معارك بنفسه في طرقات المدينة جرح خلالها أكثر من مرة. لهذا استغل الداي الخلافات بين أفراد العائلة الحاكمة في تونس وأرسل سنة 1686م حملة عسكرية بقيادة إبراهيم خوجة استولت الحملة على المدينة ونصب محمد باي على رأس الإيالة كما اغتالت أخاه، ولما عاد إبراهيم خوجة إلى الجزائر وجد الداي قد عين باشا ممثلًا للسلطان بينما عين هو دايًا مكانه، لكن الباشا ميزومورطو ظل يمسك السلطة الفعلية إلى أن عين على رأس الأسطول العثماني⁸⁷، ومن جهة ثانية عمل محمد باي تونس على التخلص من التبعية للجزائر، هذا ما دفعه حكام الجزائر إلى تنظيم حملة عسكرية أخرى ضد تونس سنة 1689م خلعوا الباي محمد ونصبوا بايا جديدًا هو "محمد شاكّر"، لكن الباي السابق الذي كان يتمتع بمساندة السكان استعاد سلطته، وفي سنة 1694م جمع محمد شاكّر أتباعه وأعلن الحرب محمد علي باي وتدخل باي قسنطينة في الصراع إلى جانب محمد شاكّر وألحقًا هزيمة نكراء بمحمد باي في "منطقة الكاف" مكنت محمد شاكّر من استعادة السلطة بدعم مباشر من حكام الجزائر⁸⁸.

⁸⁶ أحمد بن أبي ضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، 1996، ص 335.

⁸⁷ نفسه، ص 336.

⁸⁸ أحمد بن أبي ضياف، إتحاف أهل الزمان، مصدر سابق، ص 110.

في عهد "حمودة باشا" عاد الصراع السياسي من جديد بين الإيالتين المغربيتين وأدى ذلك إلى حرب معلنة بين الجانبين وذلك عندما أصبح يفكر في خلق صعوبات ومشاكل لحكومة ودايات الجزائر التي كان يناصبها العداء بسبب الحروب المستمرة التي كانت بينهما.

كان ملوك تونس يبعثون مركبا محملا بالزيت وبعض الهدايا الرفيعة كل سنة إلى ملوك الجزائر فقطعوها في عهد حمودة باشا،⁸⁹ فاشتعلت الحرب بين البلدين، فبعث أحمد باشا المراكب الجهادية ليأخذوا ما وجدوه من مراكب تونس إلى أن يدفعوا ما عليهم من العادة التي ألزم بها ملوكهم بملوك الأتراك بالجزائر ولما أحس "حمودة باشا" بالقوة بسبب ضعف حكام الجزائر والقلاقل بينهم، صار يتعلل على أهل الجزائر وأخذ في إزالة ما اعتادوه من التعدي الذي أنه صاحب الجزائر أو قسنطينة⁹⁰ يشتري الأنعام ويبيعها إلى البيع بتونس بثمن يلوح بالإشارة إليه، فيتعطل أهل البلاد عن بيع أنعامهم حتى يباع ما أتى من الجزائر أو قسنطينة والذي يموت من تلك الأنعام في الطريق تزعم رعاته أنه سرق منهم في أرض تونس فيزداد ثمنه على الثمن المطلوب.⁹¹

تقدمت القوات التونسية وحاصرت قسنطينة 1807م مدة سبعة عشر يوما ولم تتراجع إلا بعدما وصلت الإمدادات العسكرية من مدينة الجزائر بقيادة صالح باي، ومن جهة أخرى تعددت الهجمات البحرية الجزائرية على السواحل التونسية في عهد الرايس حميدو 1818م حتى أمكن التوصل إلى عقد معاهدة لضبط الحدود بين البلدين بوساطة السلطان العثماني لكن المعاهدة لم تستطع محو الآثار السلبية التي تركها النزاع المزمع بين البلدين مما أثر في موقف باي تونس من الاحتلال الفرنسي للجزائر.⁹²

3/ مع المملكة المغربية:

*3- العلاقات الجزائرية مع المملكة المغربية:

عرفت العلاقات بين الجزائر والمملكة المغربية مع مطلع القرن السادس عشر حالة من الاضطراب بسبب حالة التشتت والتمزق السياسي الذي عرفته الأسرة الوطاسية وصراعها مع الأسرة السعدية ومن جهة أخرى ارتباط

⁸⁹ نفسه، ص 89.

⁹⁰ نفسه، ص 91.

⁹¹ نفسه، ص 93.

⁹² دي غرامون، مراسلات قناصل مدينة الجزائر، المجلة الإفريقية، العدد 31، 1887، ص 67.

الجزائر بالخلافة العثمانية وبداية حكم البلبايات الذي جعل من الجزائر تتحكم في الحوض الغربي من البحر المتوسط.

تجددت أطماع المغاربة في عهد الملوك السعديين الذين لم يشذوا على سياسة أسلافهم التوسعية، وكانت مدينة تلمسان مركز الصراع لكونها بوابة بين شرق المغرب والغرب الجزائري، ومن يملكها يملك عمق المغرب والجزائر، ومن جهة أخرى كانت محطة تجارية هامة بين أوروبا وبلاد السودان، لذلك كانت دائما مطمعا لحكام المغرب وهدفا لغزواتهم منذ عهد المرينيين⁹³

إن تدخل السعديين في تلمسان لا يعود فقط إلى الأطماع التاريخية لحكام المغرب في تلمسان ومزاياه الكثيرة، وإلى مجرد طموح محمد الشيخ السعدي، إلى توسيع ملكه، واستكمال فتوحاته، وإلى جعل أحد أبنائه ملكا على تلمسان⁹⁴، ولكن أيضا إلى بغضه للأتراك وهو يراهم يستولون على المغرب الأوسط، وخوفه من أن يتخذوا هذه الأخيرة ركابا لغزوه في المغرب⁹⁵

1-: احتدام الصراع بين العثمانيين والسااطين السعديين:

يعود سبب الصراع إلى الإطماع التقليدية المغربية بالغرب الجزائري ومدينة تلمسان التاريخية رغبة في إحياء أمجاد دولة الموحدين وتوحيد المغرب الإسلامي من جديد تحت حكم الأشراف السعديين والعلويين⁹⁶، وتعتبر المغربية أنهم أولى من حكم المغرب الإسلامي من الأتراك.الذين يعتبرونهم أعاجم رغم دخولهم الإسلام ونقلهم الخلافة الإسلامية إلى عاصمتهم وهذا ما يفسر مقاومتهم للتدخلات العثمانية والجزائرية"، ومن جهة ثانية، رغبة حكام الجزائر العثمانيين في مد نفوذهم إلى المغرب تحقيقا لأهدافهم أهمها وحدة العالم الإسلامي تحت نفوذ الإمبراطورية العثمانية".

وبعد وفاة السلطان السعدي "أحمد المنصور" سنة 1603م عمت المغرب الفوضى والاضطرابات وانعدم الأمن والاستقرار انقسمت البلاد إلى رقع جغرافية متصارعة نتيجة الاقتتال على السلطة بين أبنائه، وفي هذه الظروف

اعمار بن خروف، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، ج1 والتوزيع، دارالامل للطباعة، الجزائر، 2006، ص141.

⁹⁴ عمار بن خروف،.....مرجع سابق، ص142.

⁹⁵ نفسه، ص143.

⁹⁶ نفسه، ص145.

ظهرت الأسرة العلوية بنسبها الشريف ودعوتها الرامية لنزع الخلافة من السعديين، وتمكن السلطان العلوي "مولاي رشيد" القضاء على متمرعات القبائل والأطماع الخارجية. وبذلك دخل المغرب تجربته الشريفة الثالثة بعد دولتي الأدارسة والسعديين"⁹⁷.

ثانيا: فترة حكم العلويين:

يرجع نسب هذه الأسرة إلى جدهم الأعلى: الحسن بن قاسم الوافد إلى المغرب سنة 644هـ/1265م من "ينبوع النخل:" بالحجاز مع مطلع الدولة المرينية حيث استقر بسجلماسة إقليم تافيلالت، ويتصل النسب الشريف لهذه الأسرة إلى نسب النبي صلى الله عليه وسلم حسب المصادر التاريخية البارزة"⁹⁸

-العصر السياسي الأول 1664-1757م"⁹⁹:

1/المولى محمد بن محمد الشريف: وهو أول ملوك الدولة العلوية.

2/المولى الرشيد: 1664-1672م: تولى الملك بعد وفاة أخيه المولى محمد حيث دخل فاس بعد حصار ثالث في يونيو 1666م، ثم دخلت القبائل التي كانت خاضعة لأخيه تحت طاعته"¹⁰⁰.

3/المولى إسماعيل: 1672-1727م: بويع بعد وفاة المولى الرشيد وقد كان وقتها نائبا له بفاس، ثم توجه إلى مكناس واتخذها عاصمة له، لقي صعوبات كبيرة على غرار سابقه في إخماد الفتن والثورات"¹⁰¹، وأصبح المولى إسماعيل ابرز شخصية التفت حولها الأمة ودارت بينه وبين ملوك عصره الرسائل والمخابرات في مختلف الشؤون مع أنه حارب العديد منها. واستطاع القضاء عليها ثم تفرغ لفتح الثغور على غرار: طنجة 1679م، المهديّة 1681م، العرائش 1689م، أصيلة 1691م."¹⁰²

-ثانيا: عهد الاضطرابات 1727-1757م:

⁹⁷ عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، مج9، عهد العلويين الأول، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، 1988، ص9.

⁹⁸ نفسه، ص12.

⁹⁹ نفسه، ص14.

¹⁰⁰ أبو القاسم الزباني، الروضة السللمانية في ذكر ملوك الدولة الإسماعيلية، مخطوط لمكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، الورقة من 63-68.

¹⁰¹ محمد الأخضر، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، 1075-1311هـ/1664-1894م، دار الرشاد الحديثة، دار البيضاء، 1977، ص72.

¹⁰² عبد الرحمن بن زبدان العلوي، العلائق السياسية للدولة العلوية، تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط، 1999، ص47.

بعد وفاة المولى إسماعيل تنازع أبناؤه وطوائف الجيش من القبائل. ومنها: ثورة مراكش، ثورة فاس سنة 1083هـ/1682م، ثورة سوس سنة 1677م، ثورة الأطلس، ثم تفرغ لفتح الثغور على غرار طنجة 1679م، مدينة أصيلة 1691م، كما استطاع تحرير جميع الموانئ التي استولى عليها الأجانب.¹⁰³

-العصر السياسي الثاني: 1757-1832م.

1-السلطان سيدي محمد ابن عبد الله: 1757-1789م: بعد تولية العرش تابع مهامه في إطفاء الفتن وإخماد الثورات، وجدد العلاقات التي عقدها جده المولى إسماعيل على غرار الدولة العثمانية.¹⁰⁴

2-المولى اليزيد 1789-1792م: أمه اسبانية من أرقاء النصارى، قتل في نزاعه مع أخيه هشام الذي كان ينازعه الملك.

3-المولى سليمان: 1792-1823م. أمضى معظم أيامه في محاربة المعارضين لحكمه وخاصة بربر الأطلس الملتفين حول "أبي بكر أمهاوش"، وكان آخر قراراته تعيين ابن عمه عبد الرحمان هشام نائبا له على فاس، فخلفه على العرش بعد وفاة بمراكش¹⁰⁵

-العصر السياسي الثالث: 1824-1894م:

1-المولى عبد الرحمن: 1823-1859م.

2-سيدي محمد بن عبد الرحمن: 1859-1873م.

3-المولى حسن 1873-1894م: وجه اهتماماته من إدخال تحديثات على النظام بما تقتضيه متطلبات العصر.

بناء على ما سبق، يمكننا أن نستنتج من الأحداث السياسية التي عصفت بالمغرب الأقصى خلال عهد الأسرة العلوية الشريفة بروز الصراعات الأسرية والتجاذبات العرقية والدينية كان أبرزها الصراع الدامي بين أفراد الأسرة

¹⁰³ أبو الحسن علي الحسني، الندرومي، أسبوعان في المغرب الأقصى، رحلة ومذكرات ومشاهدات وانطباعات، مطبعة الرسالة، دب، 1981، ص42.

¹⁰⁴ عبد الرحمن بن زبيدان العلوي، العلائق السياسية..... مصدر سابق، ص 60.

¹⁰⁵ محمد الأخضر، محمد الأخضر، الحياة الأدبية في المغرب..... المرجع السابق، ص275.

العلوية الحاكمة والتي غالبا ما كانت تنتهي بمقتل أحد أطراف الصراع، بالإضافة إلى الصراع الدموي مع الزاوية الدلائية الذي كان من نتائجه القضاء على الزاوية وتشتيت أتباعها بما في ذلك طمس لهويتها الدينية وتاريخها السياسي الكبير، على عكس المكانة التي حظيت بها من قبل الحكم السعدي للملكة.

*-العلاقات السياسية بين الجزائر خلال عهد الأسرة العلوية:

لقد مرت العلاقات السياسية بين إيالة الجزائر العثمانية والأسرة العلوية في عهد السلطان المولى إسماعيل بمرحلتين هامتين هما-1: "مرحلة المولى إسماعيل بالصراع والصدام.

تميزت هذه المرحلة بالمواجهة العسكرية والصدام المسلح مع الجزائر العثمانية، بشن المولى إسماعيل عدة غارات على الحدود الغربية للجزائر العثمانية وتجاوز خط الحدود وهو نهر ملوية الذي حدد وفق معاهدة الحدود الممضاة سنة 1065هـ/1654م مع أخيه السلطان محمد الأول (1632م/1664م)¹⁰⁷ واعترف بها أخوه السلطان المولى الرشيد(1666م/1672م) ومن مظاهر هذه المرحلة المتوترة في العلاقات الجزائرية المغربية نذكر:

تاريخ علاقات الجزائر مع المغرب الأقصى في العصر الحديث خلال فترة السلطان المولى إسماعيل العلوي (1672-1727) تكتسي أهمية خاصة حيث حكم هذا السلطان المغرب الأقصى فترة طويلة تجاوزت النصف قرن¹⁰⁸، استطاع من خلالها تثبيت ركائز دولته في المغرب، وباتت الدولة العثمانية ممثلة في إيالة الجزائرية تخشى طموحه وتوسعه الإقليمي، وظلت مشكلة الحدود بينهما تعكس صفو العلاقات، فدفعت بالسلطين الأوائل للدولة العلوية من انتهاز سياسة توسعية على حساب المناطق الغربية التابعة للجزائر العثمانية. فقد أغار السلطان محمد الأول على تلمسان وعلى الأغواط وعين ماضي والغسول ونهب تلك القرى واستولى على أموالها مما دفع بالأتراك العثمانيين أن يردوا بالقوة العسكرية على هذه التهديدات¹⁰⁹.

¹⁰⁶ عبد الكريم الفيلاي: التاريخ السياسيمصدر سابق، ص95

¹⁰⁷ نفسه، ص98.

¹⁰⁸ محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الوفراني: نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار

البيضاء المغرب 1998، ص42

¹⁰⁹ عبد الكريم الفيلاي: التاريخ السياسيمصدر سابق، ص97.

-غزو مولاي إسماعيل للصحراء الجزائرية 1676م:فترك مدينة تلمسان عن يساره وذهب موغلا في الصحراء مستقطبا القبائل وعاد بهم إلى أن وصل نهر الشلف، وعلى الضفة المواجهة للنهر فاجأهم القوات الجزائرية ببنيران المدفعية فانهزم الجيش المغربي.

-في سنة 1692م: اجتازت قوات سلطان المغرب مولاي إسماعيل الحدود الجزائرية فما كان من الداوي شعبان إلا أن يعلن الحرب ضد سلطان المغرب، فجهز عشرة آلاف من المشاة، والتقى الجمعان في مكان يسمى "المشارع" على نهر ملوية تكبد فيها الجيش المغربي خسائر جسام¹¹⁰.

-تحالف المولى إسماعيل وباي تونس ضد الجزائر 1694م

استغل المولى إسماعيل توتر العلاقات بين الجزائر وتونس، وعقد تحالفا مع الباي "مراد" الذي حاصر مدينة قسنطينة سنة 1700) ليشن هجوما على الحدود الغربية للجزائر فقرر الداوي الحاج مصطفى(1700-1705) مهاجمة التونسيين وسحقهم، ثم تحرك قاصدا جيش مولاي إسماعيل الذي جمع حشودا قدرت باثنين وعشرين ألف مقاتل وبعد قتال ومطاردة هزم مولاي إسماعيل بعد أن فقد خمسة آلاف قتيل¹¹¹. وغنم الجزائريون غنائم كثيرة ومن بينها فرس السلطان مولاي إسماعيل، الذي أهدها الجزائريون للملك الفرنسي "لويس الرابع عشر" فيما بعد هذا التحالف الذي وردت إشارات عنه في الرسالة التي بعث بها "الداوي شعبان"(1689م-1695م)، إلى الملك الفرنسي "لويس الرابع عشر" بتاريخ 1 سبتمبر 1694م.¹¹²

-حملة المولى إسماعيل على وهران سنة 1701م: توجهت حملة السلطان المغربي إلى وهران لضمها للمغرب، في حالة استخلاصها من الأسبان، بقوة قدرت بعشرة آلاف من المشاة وثلاثة آلاف فارس وكانت الفرصة مواتية للجزائريين لو أنهم وجدوا القابلية للتعاون مع سلطان المغرب ووجدوا جهودهم ضد الأسبان، لفتحت وهران قبل الفتح النهائي بسنين عديدة فاعترضت الحامية الجزائرية المجاورة لوهران قوات مولاي إسماعيل وباغتتها بمدافعها على نهر ملوية، وألحقت بالقوات المغربية خسائر كبيرة في الأرواح.

¹¹⁰ محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الوفرائي: نزعة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء المغرب 1998، ص42

¹¹¹ عبد الكريم الفيلاي: التاريخ السياسي للمغرب الكبير.....مصدر سابق، ص112.

¹¹² أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج9، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء 1955، ج7، ص31.

في عهد حكم الداوي "بابا علي شاوش" خلفه محمد بن حسن عرفت الجزائر خلال حكمه تدخلات المملكة المغربية بجنوب بايليك الغرب بقيادة أبناء مولاي إسماعيل الذي عمل على إقامة حامية بمدينة "بوسمغون" بين عين الصفراء والبيض وظلت هذه الحامية قائمة من 1713 إلى 1720م مما دفع بداي الجزائر إلى إرسال إمدادات عسكرية عن طريق البحر، غير أن الباي وهران توصل الى اتفاق مع الملك المغربي لأقاف الحرب المستمرة بين البلدين سنة 1720م.¹¹³

مرحلة الهدوء الحذر 1708/1727م:

تعرض مولاي إسماعيل لهزائم عديدة أمام الجزائريين كلما فكر في اختراق الحدود بين البلدين وهو واد التافنة، وأعتقد أنه اقتنع بفكرة أن لا جدوى مع الصدام المسلح مع الجزائريين، فالتجأ إلى السلطان العثماني مستثمرا العلاقات الودية بينهما لعله يستطيع التأثير على إيالة الجزائر¹¹⁴ وهذا ما توضحه الرسائل المتبادلة بين مولاي إسماعيل والسلطنة العثمانية - تقديم شكوى بإيالة الجزائر للباب العالي: بدأت مساعي السلطان المغربي نحو السلطنة العثمانية مذكرا إياها بالتجاوزات المستمرة لحكام الجزائر، والتي تسيء إلى العلاقات المغربية العثمانية، لذا بعث برسالة للسلطان العثماني محمد الرابع (1648-1687م) مؤرخة في 5 أوت 1683م يخبره بصنيع رجاله في الجزائر ويذكره بمعاهدة "التافنة" التي ترسم الحدود بين الدولتين¹¹⁵، وقد كان موقف السلطان متفهما ومؤكدا الميل للسلام والاحترام بقوله: «إن إيالة الجزائر عند أمره ونهيه» (العثماني بخصوص الشكوى بأهل الجزائر التي ادعى فيها السلطان فجاء الرد من السلطان العثماني في رسالة مؤرخة سنة 1725م يطلب فيها السلطان من المولى إسماعيل السماح والعفو عن الجزائريين ويهدد السلطان العثماني إيالة الجزائر في حالة الاعتداء على المغرب الولي أن قبل أن يصل إلينا كتابكم الأسى وخطابكم لأنني¹¹⁶ كئنا لا نعرف ما هم عليه أهل الجزائر ولا أنهي إلينا فعلهم أحد كما أنه يتموه لنا ولا عرفنا ما صار عندهم ولا ما هم عليه"..... وقد بلغنا أنهم معكم وإن لا نرضى منهم ذلك.¹¹⁷

4*- العلاقات مع إفريقيا جنوب الصحراء:

¹¹³ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: الاستقصا لأخبار..... مصدر سابق، ص 30.

¹¹⁴ عبد الكريم العمراني: "سياسة مولاي إسماعيل الخارجية"، في مجلة البحث العلمي، عدد 4 و5، السنة الثانية، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط 1965، ص 300.

¹¹⁵ عبد الكريم العمراني: "سياسة مولاي إسماعيل الخارجية..... المرجع نفسه، ص 312.

¹¹⁶ عبد الرحمان بن زيدان: الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة المطبوعة الاقتصادية، الرباط 1937، ص 11.

¹¹⁷ المصدر نفسه، ص 15.

لعبت القوافل التجارية الجزائرية مع إفريقيا جنوب الصحراء دورا حضاريا هاما داخل الجزائر وخارجها، وتعتبر المسالك البرية من أهم وسائل الارتباط بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء وبالتالي كانت وسيلة الاتصال الاقتصادي والسياسي والثقافي¹¹⁸، وهذا ما يؤكد الباحث عبد الجليل التميمي بقوله "...فلا غرو إذ أن التبادل التجاري كاد أحد الروافد الأساسية التي جذرت الارتباط العضوي للصلات الحضارية بين الشعوب الإفريقية وشمال إفريقيا"¹¹⁹، فالقوافل التجارية الجزائرية كانت تغدو وتروح بين موانئ الشمال وأسواق ووحدات الصحراء الكبرى في تشاد، والنيجر، ومالي، وإفريقيا الوسطى، والسنغال وغيرها من المناطق وكان مرحب بها عند عودتها وهي محملة بتبر الذهب وريش النعام والتمور والعبود السود الموجهين للأعمال التي تتطلب المهارة في المدن الجزائرية كخدم في منازل الطبقة الجزائرية العليا¹²⁰

ومن جهة أخرى، كان أمراء وملوك مملكة "سنغاي" يستقبلون التجار بحفاوة ويستدعونهم لحفلاتهم ويستقبلونهم في بلاطهم ويهيئون لهم الأمن وذلك للأهمية الاقتصادية التي كانت تنتج عن مجيء التجار الجزائريين بأعداد كبيرة إلى مملكة سنغاي، وتلهم السكان بقدم القوافل التجارية، وهذا ما تشير إليه الرحالة ابن بطوطة: "...ثم كان لي الشرف من جاء في القافلة إلى ضيافته، فتوجهت فمن توجه،"¹²¹

إن ازدهار الممالك الإفريقية في العصر الوسيط وبداية العصور الحديثة كان قائما إلى حد كبير على التجارة مع بلدان المغرب ومنها الجزائر ويتضح ذلك بشكل ملموس من أن سلطان مملكة برونو سنة 1440م كان قد بعث برسالة إلى علماء توات بالجزائر يشتكي لهم فيها أن التجار لم يعودوا يقصدون بلاده بأعداد كبيرة كما كانوا يفعلون في السابق، وقد كانت هذه الفترة من فترات ازدهار التجارة بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء مما سبب نقصا في وجود البضائع القادمة من الشمال، ورأت المملكة أن موارد الدولة قلت جراء ضعف التجارة بها مما دفع بالسلطان إلى مكتابة علماء توات ووجهائها¹²²

¹¹⁸ شعباني نور الدين، علاقات ممالك السودان الغربي بدول المغرب الإسلامي وآثارها الحضارية، رسالة ماجستير في تاريخ العلاقات بين القرنين الرابع والتاسع

الهجريين/10-15م

¹¹⁹ يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، دار الطبع، عين الهدى، مليلة، الجزائر، 2009، ص 528.

¹²⁰ نفسه، ص 529.

¹²¹ شعباني نور الدين، علاقات ممالك.....مرجع سابق، ص 98.

¹²² قويدريشار، القوافل التجارية المغاربية وآثارها، مطابع عمارقري، أ.ع.ت.ع.ب. باتنة، الجزائر، 2001، ص 17.

ومن جهة أخرى، إن تجارة القوافل العابرة للصحراء وفرت لدول المغرب الكبير ومدنه كل أسباب النمو والتطور الاقتصادي والاجتماعي أفرادا وجماعات وأصبحت تدر عليهم أموالا طائلة وغامروا في المشاركة في قوافلها نظرا للفوائد التي جناها هؤلاء التجار اقلها تحسن المستوى المعيشة وتحقيق الأمن الغذائي وتطوير الاقتصاد المغربي بتوفير رؤوس الأموال ممثلة في قناطر الذهب الخالص، والتبر، وقوافل الرقيق الذين كانوا يستغلون في الأعمال والخدمات والصناعات المختلفة ووفرة الإنتاج وانعكس ذلك إيجابا على الحياة الاجتماعية¹²³، كما استفادت بلدان السودان من علاقاتها التجارية الخارجية مع الجزائر في تصريف منتجاتها بحيث لم تعرف الركود، وكانت هذه العلاقات تشكل وسيلة اتصالها بالعالم الخارجي بحيث جلب لها ازدهارا حضاريا كبيرا، وبهذا كانت بلدان السودان تأخذ من العالم وتعطيه حتى بداية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي¹²⁴ كان الفضل فيها يعود للمغاربة والجزائريين نظرا للعوامل الطبيعية¹²⁵

ومن أبرز القوافل التجارية الجزائرية العابرة للصحراء، قافلة بني ميزاب التي تمتد إلى نهاية القرن الثامن الجري/الرابع عشر الميلادي حيث أخذت القوافل بني ميزاب من منطقتهم صوب الشمال وجنوب القارة بسبب تزايد السكان في الوادي وضعف المردود الفلاحي الأمر الذي أجبر بني ميزاب إلى التفكير في موارد أخرى للعيش يضمنون بها بقاءهم في المنطقة، فأخذوا في الاقتراب من منطقة التل قصد التجارة، حيث أصبح للمزابيين نصيب من التجارة في الجزائر العاصمة خلال العهد العثماني، واحتكروا تجارة التبر، ريش النعام، التمور، العبيد وذلك بعد أن تحصلوا على تسهيلات واسعة من طرف الحكومة التركية بالجزائر التي منحتهم حرية التجارة الداخلية والخارجية فقاموا بعقد عدة اتفاقيات مع الحكومة بالجزائر في عهد حسن بن خير الدين، فقد كانت عملياتهم التجارية نشطة بين مدينتي تومبوكتو- الجزائر يسلكون طريق غدامس أو تافيلالت، ويذكر حسن الوزان 1552م: "...ميزاب منطقة مأهولة في قفار نوميديا على بعد على بعد ثلاث مائة ميل شرق تيكورارين(قورارة) على نفس المسافة من البحر المتوسط"¹²⁶

ومنذ هذه الفترة أخذت الحياة الفكرية والاقتصادية والعمرانية في منطقة بني ميزاب تنمو وتزدهر بفضل الطريق التجاري الذي استحدثه الميزابيون بجهدهم ونشاطهم وبذلك أصبحت المنطقة معروفة كمحطة تجارية هامة

بومدين بوداود، تجارة بني ميزاب تجسيد المنهج الإسلامي في إدارة الأعمال التجارية، دار الرياض للنشر والعلوم والتوزيع، الجزائر/2006، ص86.¹²³

Mouloud.gaid. les berbères dans. histoire les ibadites. Tome.06.imprimerie. Merkouche.Algerie.S.D.p264.¹²⁴

نفسه، ص265.¹²⁵

قويدربشار، القوافل التجارية المغربية وآثارها.....مرجع سابق، ص19.¹²⁶

شمال الصحراء وجنوب الجزائر وأصبح موقعها لا يغيب عن الخرائط الجغرافية التي وضعها الأوروبيون خلال القرون السادس عشر، السابع عشر، الثامن عشر الميلادي.

ويظهر أن نشاط التجاري بني ميزاب بين الشمال والجنوب لم يكن مضمونا، فقد كانت قوافلهم التجارية المتنقلة بين التل والصحراء تتعرض أحيانا في الطريق إلى السلب والنهب من طرف قطاع الطرق وأعدائهم من القبائل الصحراوية مما دفع بالمزابيين إلى عقد تحالف دفاعي مع القبائل والأعراش الصحراوية لحماية قوافلهم مقابل مبلغ مالي متفق عليه بين الطرفين وبذلك أصبح الطريق التجاري مأمونا نوعا ما طول فترة الحكم العثماني بالجزائر.¹²⁷

*5- العلاقات مع المملكات الأوروبية:

لقد كان البحر الأبيض المتوسط خلال العصر الحديث 9/16م مجالا لتجدد الصراع والصداع بين الشرق والغرب، الشرق بزعامة الإمبراطورية العثمانية تحت شرعية الجهاد والغرب بزعامة الممالك الأوروبية الحديثة المتمثلة في فرنسا، إنجلترا، إسبانيا المسيحية وتحت وصاية الكنيسة البابوية.

إن رغبة إخضاع المغرب الإسلامي للسيطرة الأوروبية يصبغي أهداف القوة المتصارعة ومنها إخضاع مدينة الجزائر التي كانت تعتبر وكر القرصنة في البحر المتوسط -حسب الادعاءات- الدول المسيحية، ولكن كل مخططاتها باءت بالفشل لتأخذ بعد ذلك الجزائر لقب المحروسة وتنسج حولها الخرافات والأساطير.

ولعل من أبرز الاستراتيجيات بعد الجانب العسكري نجد الجوسسة التي شكلت إحدى أهم المظاهر المرتبطة بالصراع السياسي والعسكري في الجزائر، ومنها الجوسسة المحلية وتعتبر صورة لصراع القوة المحلية مع الأتراك العثمانيين وميلهم للطرف الأوروبي وذلك من منطق تفضيل المصالح الشخصية والقبلية وحب الزعامة لأن الأتراك كانوا يهددون زعامتهم بعد فقدان بعض القبائل لممتلكاتها وما تعرضت له من نهب وسلب وقتل.¹²⁸

¹²⁷ حمو محمد عيسى النوري، دور المزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، المجلد:1، دار البعث، قسنطينة، د.ت.ن، الجزائر، ص.5.
¹²⁸ أحمد توفيق المدني، حرب ثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، ط1، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص

ومن جهة أخرى، أورد لنا "أبن رقية" حادثة تحالف أبو حمو الثالث مع القبائل المحلية والأسبان ضد الإخوة برباروس، وذكر أن الجواسيس هم من أطلعوا أبو حمو الثالث على موعد خروج "إسحاق" ومن معه للهجوم عليهم، فقام أبو حمو بتنصيب المدافع تجاههم وما أن خرج "إسحاق" حتى رموه بالمدافع فاستشهد منهم خلق كثير.¹²⁹

غير أنه من أشهر نماذج الجوسسة لصالح النصارى هي قبائل بني عامر والتي كانت خير معين للأسبان بمدينة وهران وما جاورها من القرى والقبائل، الأمر الذي ما ساعدهم على تعزيز نفوذهم في هذه المناطق.¹³⁰

وفي الرسالة التي ألفها الشيخ العلامة عبد القادر المشرفي الموسوم بـ " بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر". ويخبرنا الشيخ المشرفي عن حجم المساعدات التي قدمتها هذه القبائل للأسبان بقوله:.....ولما استقل قدم الأسبان بوهران انحاز إليهم طوائف من الأعراب الذين ضعف إيمانهم فصاروا خدما لهم، و من جملة جيوشهم، وكثر بهم السواد على المسلمين فكانوا عليهم أعوانا، فشنوا بهم الغارات، وانتفعوا بهم فيما يحتاجونه من الدواب والأقوات¹³¹

وكان اليهود على مر التاريخ المصدر الأساسي لتسريب المعلومات حول شؤون الإيالة السياسية والاقتصادية والعسكرية لصالح القناصل الأجانب وخاصة الفرنسيين، لذلك ثمنت السلطات الفرنسية جهود اليهود خلال سنوات القطيعة بين الجزائر وفرنسا حين قدموا معلومات دقيقة تمس جميع شؤون الإيالة عن طريق العناصر اليهودية المتنفة أو بواسطة أفراد من القنصليات الاسبانية والسويدية والهولندية¹³²

1-العلاقات مع فرنسا:

¹²⁹ محمد بن رقية التلمساني، الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، تحقيق: خير الدين سعدي، ط1، أوراق ثقافية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2017، ص96.

¹³⁰ عبد القادر المشرفي، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين من الأعراب كبني عامر، تحقيق: محمد بن عبد الكريم، دار الوعي، ط1، ص13.

¹³¹ المصدر نفسه، ص33

¹³² كمال بن صحراوي، الدور الدبلوماسي لليهود الجزائريين في أواخر عهد الدايات، رسالة ماجستير، جامعة معسكر، 2007-2008-ص85.

تمتد العلاقات الفرنسية الجزائرية إلى ما قبل القرن 16م، وتعتبر سنة 1619م السنة التي أبرمت فرنسا أول معاهدة سياسية بين البلدين، منا تم توقيع سنة 1694م أول معاهدة تجارية وهي تخص المؤسسات الفرنسية بالشرق الجزائري وجاءت بعد التوتر الذي شاهدته العلاقات السياسية والتجارية ولهذه المعاهدة أهمية بالغة إذ أعادت لفرنسا امتيازاتها التجارية بالمنطقة وجعلت حق التجارة مقصورا على الفرنسيين دون غيرهم.

يمتاز القرن 17م في حد ذاته بسمات بارزة وتحولات أساسية في الجزائر، فهو عصر التفوق البحري وعصر الانفصال عن الدولة العثمانية وعصر الاضطرابات السياسية تمثل في عصر الاغوايات وما ترتب عليه من اضطرابات وفوضى سياسية وانتشار ظاهرة الاغتيالات، بالإضافة إلى ظهور شخصيات سياسية قوية " كالأغا شعبان" الذي تصدى لجيوش لويس الرابع عشر بجيجل، والداي الحاج حسين" الذي أعلن الحرب على فرنسا ورفض الاستسلام رغم القصف الرهيب الذي تعرضت له مدينة الجزائر، رغم التقارب الذي شاهدته العلاقات الثنائية، فان العلاقات لم تتخذ الصبغة الرسمية إلا سنة 1578م بإنشاء أول قنصلية فرنسية بالجزائر بعدما طلبت فرنسا من السلطان العثماني التدخل لصالح الباشاوات حيث أرسل السلطان "مراد الثالث" أمرا مستعجلا يقضي بقبول "موريس سورون" قنصلا،¹³³ ولا شك أن فرنسا كانت تهدف كسب مكانة خاصة في الحوض الغربي من البحر المتوسط، فاعتراف الجزائر لفرنسا يعتبر من أكبر المكاسب إذ ستحل فرنسا مشاكلها وخلافاتها عن طريق القنصلية وبالتالي نستنتج أن الأسباب السياسية أكثر منها تجارية"¹³⁴

* حادثة حصن فرنسا:

تصدعت العلاقات بين الجزائر وفرنسا بعد مضي أيام قليلة على تاريخ تجديد هذه العلاقات بسبب تدمير مركز المؤسسات الفرنسية أو حصن فرنسا من طرف الحكومة الجزائرية في يونيو 1604م بسبب عدم احترام الشركة الفرنسية للاتفاقيات المبرمة والتي تنص على أن يقتصر نشاطها على صيد المرجان، ولكن الشركة الفرنسية تجاوزت نشاطها إلى شراء الحبوب بأسعار زهيدة لتصديره إلى مرسيليا جانية في ذلك أرباحا طائلة متجاهلة الأوضاع الصعبة التي عرفت الجزائر في هذه الأثناء مجاعة خطيرة هددت حياة السكان المحليين مما أدى إلى تدمير السكان والسلطات المركزية، فأوعزت إلى الحامية المتواجدة بدينة عنابة تخريب الحصن وحجز موظفيه.

¹³³ A. C. M., h.h. 331. consulat des ECHRILES DU LEVANT. CONSULAT DALGER.

BUSQUET. R. LES ORIGINES DU CONSULAT DE LA NATION FRANCAISE A ALGER. M. I. H. P. 1926-1927. T. III. P6. ¹³⁴

اعتبر الملك الفرنسي هذه الحادثة إهانة لشرف فرنسا وأكد على إصلاحها فوراً، وأحتج لدى الباب العالي حيث قام السلطان العثماني بإعادة بناء الحصن وتعويض سائر الخسائر التي لحقت بالتجار الفرنسيين¹³⁵

كما السلطان العثماني بإيفاد المبعوث "الآغا محمد خوجة" لتسوية الخلاف سنة 1605م، فقام باغتيال "الباشا خضر" وحجز ممتلكاته، لكن سفارته لم تسفر على أية نتيجة¹³⁶

أرسل السلطان العثماني مبعوثاً جديداً "الخوجة مصطفى" الذي زود بفارامان سلطاني يقضي باحترام وتنفيذ ما نصت عليه معاهدات الامتياز والامتثال إلى مطالب فرنسا، غير أن الانكشارية لم تؤذن له بالنزول من السفينة فور وصوله إلى الجزائر واكتفى بتقديم فحوى مطالب المبعوث الفرنسي، لكن الديوان أعلن عدم امتثاله للأوامر السلطان وثارت ثائرته ضد مبعوث السلطان، وظل ملازماً سفينته ما يزيد عن الشهر ولم يمنح له رخصة النزول. وفشلت المفاوضات مع المبعوث الفرنسي فيما يخص إعادة بناء الحصن، وإطلاق سراح الأسرى الفرنسيين خاصة وأن البحرية الفرنسية المرسلية كانت في أمس الحاجة إلى خدماتهم¹³⁷

وما يمكننا استخلاصه أن رفض الديوان وساطة السلطان العثماني كان بسبب معاهدة الامتياز لسنة 1604م التي منحت جل الصلاحيات لمعاقبة الجزائريين، ومن جهة ثانية تعبر عن نهاية التحالف العثماني-الجزائري وبداية القطيعة الرسمية.

*-سياسة الملك لويس الرابع عشر تجاه الجزائر:

بداية الحكم المطلق في فرنسا مع وصول الملك لويس الرابع عشر إلى عرش فرنسا، فبمجرد توطيد مركزه السياسي ناصب العداء الصريح للجزائر، وأصبحت سياسته تهدف إلى محاولة القضاء على سيادتها والتدخل المسلح شن الحملات البحرية المتكررة ضدها لأنه كان يعتبر نفسه "حامي المسيحية" ومسؤولاً أمام الله عن مصالحها، وهذا لاشعور دفعه إلى محاربة الإسلام سرا وعلانية.

¹³⁵Xivrev. Recueil des lettres. Tome vi. P 688.

¹³⁶Emerit. La mission.....op.cit. p51.

¹³⁷Emerit. La mission.....op. cit. p304.

ومن جهة أخرى، اتسم عصر الملك لويس الرابع عشر بطغيان الفكر والتعصب الديني بالإضافة إلى أن سياسته كانت تهدف إلى توحيد أوروبا المسيحية ضد العثمانيين بصورة نهائية بقيادة فرنسا¹³⁸

تشير معظم الكتب التاريخية أنه بمجرد اعتلاء لويس الرابع عشر سدة الحكم أصبح يناهز بضرورة احتلال الجزائر إلى جانب أصحاب التيار الديني والتيار الماركنتيلي أصحاب المصالح التجارية وعن طريق الصحافة ورجال السياسة الذين كانوا وراء الملك الجديد يدفعونه نحو التشدد واستعمال القوة البحرية ضد الجزائر، لأن البلد غني جدا بثروته الزراعية والحيوانية ويمكنه إنتاج ثلاثة أضعاف ما ينتجه اليوم إذا أدخلت وسائل الإنتاج الحديثة على زراعته، إضافة إلى الذهب والفضة غير المستغلة وغيرها من المعادن المختلفة .

إن الوضع المشحون بالصليبية والنفعية دفع بالملك الفرنسي إلى خوض الحروب المتعددة ضد العثمانيين، وهو الذي كان يتباهى على غيره من ملوك فرنسا بشتى الألقاب والانتصارات التي يحققها في حروبه ضد الجزائر.

*-حملة بوفورت على جيجل 1664م.

استهدفت هذه الحملة العسكرية البحرية مدينة جيجل الساحلية-حسب المصادر الفرنسية- فان الحملة العسكرية جاءت كرد فعل انتقامي ضد البحارة الجزائريين. ففي فترة سبعة أشهر استولت البحرية الجزائرية على قيمة المليونيين من البضائع وعلى حوالي ثلاثين سفينة فضلا عن خمسمائة أسير¹³⁹

ودفعت هذه الانتصارات العسكرية بالقنصل الفرنسي الإلحاح لدى حكومته على إرسال الأسطول الفرنسي لبت الرعب في نفوس الجزائريين لعلمهم يتخلون عن نشاط القرصنة، بينما أرجعت بعض المصادر هذا الاعتداء على فشل الدبلوماسية بإعادة الحصن إلى فرنسا¹⁴⁰

إن الهجوم البحري على مدينة جيجل سنة 1664م أرادت منه فرنسا تحقيق مشروعها التوسعي ضد مدينة الجزائر، كما كان هدف الملك لويس الرابع عشر وراء ذلك تبرير امتناعه المشاركة في حصار فيينا ضد العثمانيين، أي مساندة الجبهة المسيحية في صراعها ضد الإسلام حيثما كان، وكان لظهور شخصية "كولبير" الذي يتميز بطموحات

¹³⁸ THALIE. Raison d'état et pensée politique. L'époque Politique de Richelieu. Athènes. 1966. P282.

¹³⁹ BRUNEAU. A. Tradition et politique de la France Dans le Levant. Paris. Alcan. 1932. P32.

¹⁴⁰ TURBET DELAT. G. La Presse périodique Française et L'Afrique barbaresque au xvii siècle. 1611-1715. GENEVE. DROZE. P180.

كبرى في مجال الهيمنة الاقتصادية، وبذلك أصبحت منطقة المغرب الإسلامي مصدر اهتمام فرنسا وبصورة خاصة الجزائر، فبدلوا ما في وسعهم للتعرف على البلاد الجزائرية للحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات الدقيقة¹⁴¹.

وما يمكننا استنتاجه، أن فرنسا بانتهاجها أسلوب القوة العسكرية لإخضاع الجزائر أو تدميرها لم تفلح في ذلك وهذا لم تختار الطريق الأسلم والأنجع للتعامل مع الجزائر، بينما كانت إنجلترا وهولندا قد فهمتا أن استعمال القوة لا طائل منه مع الجزائر فسلكتا أسلوب الترضية عن طريق الهدايا وغيرها، وبذلك أصبحت فرنسا مرغمة على مسaire الدول الأوروبية الأخرى والتخلي عن الأسلوب العسكري. فالحرب المديدة التي خاضها على جبهات مختلفة تسببت في عجز كبير لخزينة الدولة الفرنسية بالإضافة إلى الهزائم المتكررة على يد البحريتين الانجليزية والهولندية أفقدتها هيبتها وهيمنتها مما جعل مسالمة فرنسا للجزائر ضرورة ملحة لمواجهة لأخطار الأوروبية¹⁴².

*-مشاريع فرنسا لاحتلال الجزائر:

. تعددت مشاريع فرنسا في الجزائر منذ عهد مبكرو منذ عهد الملك لويس الرابع عشر ولكن الظروف السياسية التي حالت دون تحقيق فرنسا لأهدافها السياسية والعسكرية بالجزائر ونذكر منها:

1/مشروع كيرسي الأول والثاني 1782-1792م.: اقترحه القنصل الفرنسي بالجزائر على حكومته.

2/مشروع فونتودي براداي: عين سنة 1790م سكرتيرا ومترجما للغات الشرقية، وقد كتب مذكراته كاملة عن موارد الجزائر، تجارتها، قواتها البرية والبحرية، وتعرض لمشروع احتلال الجزائر مقترحا النزول بشاطئ سيدي فرج.

3/المخططات النابوليونية: كان نابليون يهدف احتلال الجزائر كهدف استراتيجي لمعارضة المحور الانجليزي الرابط بين إنجلترا وجبل طارق ومصر، بمحور مقابل له يربط بين مدينة مرسيليا-تولون-الجزائر¹⁴³.

¹⁴¹ محمد زدال، العلاقات الجزائرية الفرنسية 1791-1830م، مطبعة دحلب، شارع طرابلس، حسين داي، ص 11.

¹⁴² نفسه، ص 15.

¹⁴³ عمار عمورة، الجزائر بوابة التاريخ، ما قبل التاريخ إلى 1962م، دار المعرفة، الجزائر، 2009، ص 112.

4/ مخطط تيدينا 1802م: لا يختلف المشروع عن المشاريع السابقة من حيث المعلومات التي تخص الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، والفوائد التي تعود على فرنسا إلا أن "تيدينا" أشار إلى صعوبة الهجوم البحري على مدينة الجزائر مؤكداً على أهمية الهجوم البري.

5/ مشروع المهندس بوتان 18 أبريل 1808م: وقع الاختيار على الضابط المهندس بوتان لوضع تقرير مفصل عن إيالة الجزائر والقيام بمهمة استطلاعية في مدينة الجزائر وأن يتجول بنفسه داخل أسوار الجزائر وخارجها¹⁴⁴ ثم التفكير القيام بحملة عسكرية ضد الجزائر سواء كانت بحرية أو برية والاستفادة من المعلومات الموجودة في محفوظات العلاقات الخارجية والحربية الفرنسية¹⁴⁵ وجمع كل المعلومات من رسومات، وخرائط، وفي مقدمة تقريره أكد على نقطتين أساسيتين: -اختيار المكان اللائق لإنزال القوات العسكرية قرب العاصمة المعروف بسيدي فرج، - النقطة الثانية، أن الجزائر لا تستطيع تعبئة أكثر من ستين ألف من المتطوعين، كما حدد الوقت الملائم في شهري مايو/ وأكتوبر، لكن نابليون لم يتمكن من تنفيذ مشاريعه نظراً للمشاكل التي ظهرت في إسبانيا والحملة الروسية ووضع هذه الخطة في رفوف الأرشيف حتى سنة 1830م.

6/ مشروع بيار دوفال: جاء في تقرير القنصل الفرنسي دوفال " سنة 1819م: أن سقوط الجزائر في أيدي الأوروبيين سيجرعه القضاء على القرصنة والسيطرة على كامل الدول البربرية"¹⁴⁶

كما ذكر الأحداث التي عاصرها أثناء إقامته بالجزائر، ووضع وصفاً طبوغرافياً لمدينة الجزائر حدد فيه نقطتين للنزول العسكري: غرب مدينة الجزائر عند رأس "كاكسين"، وشرق المدينة في الشاطئ الممتد من وادي الحراش إلى البرج البحري"¹⁴⁷

7/ مشروع الضابط "بيرهولان P. Halane": وضع تقريراً مفصلاً عن الجزائر في أكتوبر 1802م، فيه معلومات تاريخية وأكد أن عدد سكان العاصمة نحو تسعين ألف نسمة، أما القوات العسكرية فتضم قرابة أربعة آلاف فارس وبإمكان الحكومة أن تعبئ ما بين خمسين وستين ألف جندي في حالة الحرب، كما أن الجيش يشتكي من

¹⁴⁴ ي هلاليلي، العلاقات الجزائرية الأوروبية ونهاية الإيالة 1815-1830، دار الهدى، الجزائر، 2007، ص 73، ص 494.

¹⁴⁵ محمد زدال، العلاقات الجزائرية الفرنسيةمرجع سابق ص 73.

¹⁴⁶ مبارك بن محمد الميلي،ص 283.

¹⁴⁷ محمد زدال، العلاقات الجزائرية الفرنسيةمرجع سابق، ص 77.

مدفعية الميدان. أما القوات البحرية فهي تتشكل من ستة عشرة سفينة إلى جانب خمسين زورقا مخصصا للدفاع عن المياه الإقليمية ويتوفر الأسطول البحري في المجموع على أربعمئة فوهة مدفعية"¹⁴⁸

تعود مشاريع فرنسا للاحتلال الجزائر إلى عهد الثورة الفرنسية 1789م، فقد طلب وزير البحرية من "جان فون سانت" القنصل الفرنسي الأسبق الإجابة على العديد من الأسئلة تتعلق بالوضع العسكري والحالة السياسية للجزائر لكنه طلب من وزير البحرية لاستفادة من تقرير "دوكريسي" De kersy حول مشروع تحديد حملة ضد الجزائر سنة 1791م، والذي ضمته معلومات عن تحصينات مدينة الجزائر، وعن مدفعية الحصون، وعدد القوات البرية والبحرية التي تتوفر عليها الجزائر في تلك الفترة"¹⁴⁹

وأثناء الاستعدادات العسكرية أعد الضابط "بيرهولان P. Halane" تقريراً مفصلاً عن الجزائر في أكتوبر 1802م، فيه معلومات تاريخية وأكد أن عدد سكان العاصمة نحو تسعين ألف نسمة، أما القوات العسكرية فتضم قرابة أربعة آلاف فارس وبإمكان الحكومة أن تعبئ ما بين خمسين وستين ألف جندي في حالة الحرب، كما أن الجيش يشترك من مدفعية الميدان. أما القوات البحرية فهي تتشكل من ستة عشرة سفينة إلى جانب خمسين زورقا مخصصا للدفاع عن المياه الإقليمية ويتوفر الأسطول البحري في المجموع على أربعمئة فوهة مدفعية"¹⁵⁰

وبمجرد أن أبرم نابليون معاهدة "تلسيت" للسلام عام 1807م حتى وجه أنظاره إلى الجزائر، فقد قررت فرنسا إيفاد الضابط المهندس بوتان" إلى الجزائر في مهمة تجسسية، وعندما غادر ميناء طولون سنة 1808م إلى الجزائر اتصل بالقنصل الفرنسي "تائفيل" لمساعدته في هذه العملية الحساسة، ولم يكتف بوتان" بدراسة السواحل الجزائرية، بل تسلل إلى ضواحي مدينة الجزائر وجمع كل المعلومات حولها من رسومات، وخرائط، وأن بوتان" في مقدمة تقريره على نقطتين أساسيتين: -اختيار المكان اللائق لإنزال القوات العسكرية قرب العاصمة المعروف بسيدي فرج، -النقطة الثانية، أن الجزائر لا تستطيع تعبئة أكثر من ستين ألف من المتطوعين، كما حدد الوقت الملائم في شهري مايو/ وأكتوبر، لكن نابليون لم يتمكن من تنفيذ مشاريعه نظرا للمشاكل إلي ظهرت في اسبانيا والحملة الروسية ووضع هذه الخطة في رفوف الأرشيف حتى سنة 1830م.

¹⁴⁸ محمد زدال، العلاقات الجزائرية الفرنسيةالمرجع نفسه، ص 74.

¹⁴⁹ حنفي هلاليلي، العلاقات الجزائرية الأوروبيةمرجع سابق، ص 73.

¹⁵⁰ محمد زدال، العلاقات الجزائرية الفرنسيةمرجع سابق، ص 74.

*-قضية ديون فرنسا على الجزائر:

تعود قضية الديون إلى فترة حكومة الإدارة سنة 1796م عندما كانا التاجران اليهوديان المتنفذان، بكري وبوشناق يمونا فرنسا بالقمح والذي كان معظمه يعود إلى حكومة الداى وأن الحكومة الفرنسية تماطلت في تسديد هذا الدين لسنوات عديدة، وعندما أدركا التاجران أن تسوية المشكلة ما تزال بعيدة دخلوا في مفاوضات مهلكة، وقعوا سندات بمائة ألف فرنك، تنازلوا عن عشرين ألف من الدين قصد الحصول على المال"¹⁵¹

إن قضية الديون لم يتم تسويتها بالرغم من العقود والاتفاقيات التي أبرمت بشأنها، وقد اقترحت فرنسا قاعدة لتسوية الديون والمتمثلة في تخفيض قيمتها من مبلغ سبعة عشر مليوناً فرنك إلى سبعة ملايين فقط، وبعد مشاورات قبل البكري مشروع التسوية، والتزم كتابيا بذلك مع الداى بحضور الشهود"¹⁵²، غير أن تنفيذ العملية اصطدمت بمناورات عديدة منها اعتراضات مواطنين فرنسيين تدعمهم المحاكم الفرنسية."¹⁵³

مع مطلع القرن الثامن عشر عرفت البحرية الجزائرية مرحلة الضعف والانكماش، فشحت الغنائم، وقل عدد الأسرى، وتناقصت الإتاوات، وسيطرة النفوذ المالي اليهودي على التجارة الخارجية بالإضافة إلى المواجهات البحرية مع الدول الأوروبية بين 1812/ 1826، ولم تتمكن الجزائر في هذه الفترة من تجديد أسطولها البحري إلى جانب نقص البحارة العاملين بالسفن بعد أن عزف الأهالي عن ركوب البحر باستثناء جماعة البساكرة حيث فضل الأتراك الجندية داخل البلاد"¹⁵⁴

*-حادثة المروحة 27 أفريل 1827::

لقد جرت العادة أن تقوم القناصل الدول الأوروبية المعتمدين لدى الجزائر بزيارة إكرام إلى الداى بمناسبة اليوم الأول من البيرم، وفي يوم 27 أفريل 1827م ليلة العيد ذهب القنصل الفرنسي "دوفال" لقصر الداى للتهنئة وقد كان "دوفال" يجيد اللغة التركية، ودار الحديث بين الداى حسين ودوفال عن السبب في أن ملك فرنسا لم يرد عليه في الرسالة التي كان قد أرسلها منذ مدة، فكان رد القنصل جافاً غليظاً باللغة التركية: "ليس من العادة أن

¹⁵¹ حمدان خوجة، المرأة....مصدر سابق، ص 178.

¹⁵² نفسه، ص 182.

¹⁵³ جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، وحدة الطباعة بروجية، الجزائر، 1994، ص 98.

¹⁵⁴ حنيفي هلايلي، العلاقات الجزائرية الأوروبيةمرجع سابق، ص 78.

يخاطب الملك من هو أدنى منه"، وهذه الكلمات مست كرامة الداى إلى درجة أنه لم يتمالك نفسه من الغضب وضربه بالمروحة ضربة واحدة¹⁵⁵

وكان رد فرنسا على ذلك إرسال قطعة من أسطولها أمام مدينة الجزائر يوم 12 جوان وصعد "القنصل دوفال" السفينة بقيادة القبطان "كولي" الذي طلب من الباشا الداى حسين أن يأتي شخصيا إلى السفينة ويعتذر للقنصل "دوفال"، لكن الداى رفض¹⁵⁶

وكان لهذا الحادث المفتعل نتائج خطيرة على مستقبل الجزائر وهو حلقة من حلقات السياسة العدوانية التي انتهجتها القنصل الفرنسي "دوفال" بتواطؤ مع التجار اليهود والسياسيين الفرنسيين على رأسهم الوزير "تاليران" الذين كانوا يبحثون عن أية حجة لاحتلال الجزائر¹⁵⁷، التي انتهت بحصار السواحل الجزائرية. وفي يوم 07 فبراير 1830م أعلنت فرنسا التعبئة العامة في الجيش الفرنسي، وبدأت الاستعدادات لتجهيز الحملة العسكرية.

*بعد حادثة المروحة والاهانة التي ألحقها الداى حسين بفرنسا حسب زعمها، طلبت منه الاعتذار الرسمي، حيث خولت الحكومة الفرنسية الاميرال "كولي" تقديم شروط الترضية التي تقوم على مبدأ القوة العسكرية والتي تضمنت الشوط التالية:

1- أن يذهب الداى حسين بنفسه الى مقر القنصلية الفرنسية ويقدم اعتذارا رسميا للقنصل الفرنسي.

2- أن يرسل وفدا رسميا برئاسة وزير البحرية المعروف بوكيل الحرج الى السفينة الملكية الفرنسية ليقدم الاعتذار.

3- أن يرفرف على كل الحصون العلم الفرنسي في مدينة الجزائر وتطلق مائة طلقة مدفعية لتحيته.

وقد حدد أجل قبول الترضية بأربعة وعشرين ساعة - 24 ساعة، وإذا رفض الامتثال يبدأ الهجوم الفرنسي على الجزائر.

¹⁵⁵ جمدان بن عثمان خوجة، المرأة.....مصدر سابق، ص 142.

¹⁵⁶ ابو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر، ج 1.....مرجع سابق، ص 24.

¹⁵⁷ عمار عمورة، مرجع سابق، ص 326.

وكان من الطبيعي أن لا يقبل الداوي حسين الإهانة الفرنسية ويرفضها من أساسها، الى درجة أنه صرخ قائلاً: "أتعجب كيف أن الفرنسيين لم يطلبوا مني زوجتي أيضاً"، كما أعتبر أن الحصار مجرد عملية ضغط عليه شخصياً لإرغامه وليس له مستقبل على مستقبل الجزائر.

النتيجة: قررت فرنسا قطع علاقاتها مع الجزائر واعتبرتها إهانة لشرفها فضربت حصاراً بحرياً على الجزائر حيث قام الداوي حسين بعدة ترتيبات فأمر باي قسنطينة "الحاج أحمد" باستيلاء على المؤسسات الفرنسية الواقعة بمدينة عناية و القالة ، و منذ حصار مدينة الجزائر تحمس القنصل "دوفال" لفكرة الاحتلال و أكدا سهولة تنفيذ الإنزال البري بالجزائر، لكن السلطات العليا السياسية والعسكرية لم تتبن هذا الاقتراح، ورأت فيه مخاطرة كبيرة بالقوات البرية.¹⁵⁸

و من جهة أخرى، كان الساسة الفرنسيون يفكرون جدياً في وضع حد لهذه العملية وإيجاد تسوية تكون لصالح فرنسا، ولم يكن وزير الخارجية الفرنسي من أنصار تفكيك الإمبراطورية العثمانية و تصفية أملاكها ، بالإضافة الى التكاليف الحصار العسكري الخزينة الفرنسية بمليون فرنك فرنسي سنوياً والذي لم يؤثر على الحكومة الجزائرية.

ونظراً لوجود معارضة قوية في البرلمان والخسارة الاقتصادية التي تسبب فيها الحصار، والظروف الدولية قررت الحكومة الفرنسية أن تتفاوض من جديد سنة 1829م وأرسل لهذه المهمة "القبطان دي نرسيا" الى مدينة الجزائر، وعلى ذلك تمت خطة الاجتماع بين الداوي حسين وقائد الحصار الفرنسي ولكن نتيجة اللقاء كانت سلبية لأن قائد البحرية الفرنسي طلب إرسال مندوب عن الداوي الذي أصر على عقد الصلح.¹⁵⁹

ومع وصول "بولونياك" إلى سدة الحكم سنة 8 أوت 1829م كان قد صمم على إرسال الحملة العسكرية نحو الجزائر، وهو يرى أن عملية الحصار للسواحل الجزائرية عملية خاسرة و دون فائدة تذكر لفرنسا، وفي يوم 30 يناير

¹⁵⁸ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1.....مرجع سابق، ص28.

¹⁵⁹ جمال قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر.....مرجع سابق، ص78.

1830م قرر مجلس الوزراء الفرنسي إرسال الحملة البحرية نحو الجزائر ليفرض الشروط الفرنسية على الداي حسين، وكان قد مضى سنتين ونصف على عملية الحصار¹⁶⁰.

ومن جهة ثانية، لم يكتث الرأي العام الفرنسي لهذه المسألة ولم يتحمس لها، وهذا ما يفسر معارضة الأحرار للحملة لأسباب داخلية محضة، فهم ينتقدونها لأن القائمين بها من العناصر اليمينية لذلك تحولوا إلى أنصار للاحتلال بعد سقوط ملكية آل بوربون في ثورة يوليو واعتبروها مسألة قومية لا حزبية.

في 07 فبراير 1830م، اصدر الملك الفرنسي شارل العاشر مرسوما ملكيا عين بموجبه الكونت "دي بورمون" قائدا عاما للجيش الفرنسي المكلف بغزو الجزائر واحتلالها، وقد منح له سلطات واسعة للقيام بما يلزم للإعداد للحملة، كما طرح قرض للاكتفاء قدره 80 مليون ف. فرنسي بغية تغطية النفقات العسكرية و اللوجستية، أما الخطة المعتمدة فقد وضعت اعتمادا على تقرير الجاسوس "بوتان".

يتكون جيش الحملة من 37 ألف جندي وضابط، منقسمون إلى ثلاثة فرق عسكرية، وهي: هيئة المدفعية- وحدة الهندسة- فيلق الخيالة. وينتقل الجيش من ميناء طولون على متن 675 سفينة حربية و تجارية، منها: 103 سفينة حربية، وعدد كبير من السفن التجارية المستأجرة لحمل الجنود.

وقبل إنهاء التحضيرات العسكرية للحملة، كتب الفرنسيون بيانا سريا قام العملاء والجواسيس والقناصل بتوزيع عدة نسخ في مختلف أرجاء الجزائر، وكان الهدف من وراء ذلك إضعاف معنويات الجزائريين والتخلي عن مساندة الحكم العثماني جاء فيه: "إن الفرنسيين جاؤوا الى الجزائر لتأديب الداي الذي أساء الى شرف فرنسا بسبب جهله وليس لاحتلال البلاد" فطلبوا من الأهالي بالانضمام الى الفرنسيين و التعاون معهم، وانهم يضمنون لهم أملاكهم وأراضيهم وسيحترمون مقدسهم بما فيها المساجد، وأنهم جاؤوا من أجل تحريرهم من الاتراك...."

في يوم 14 يوليو 1830م نزل الفرنسيون أرض الجزائر على الساعة الثالثة صباحا. 3.00 ونزلوا بشبه جزيرة سيدي فرج غربي العاصمة وعلى بعد 28 كلم، ونزلت الفرقة العسكرية مشاة وعلى رأسها الجنرال "بيارتوزان"، وقام

¹⁶⁰ جمال قنان ، معاهدات الجزائر.....مرجع سابق، ص 230.

الاسطول الفرنسي بتوجيه أولى طلقات المدفعية الذي لم أي مقاومة تذكر من الجيش العثماني، الأمر الذي سهل مهمته في حفر الخنادق ونصب المدافع وتنظيم الصفوف القتالية.

ورغم ضعف المقاومة، وقلة الإمكانيات وتشتت القيادة العسكرية والسياسية إلا أن الداوي حسين تمكن من تجميع الجيش والقبائل المحلية وبلغ عددها 60 ألف مقاتل، كما أرسل باي قسنطينة 13 ألف رجل، وباي وهران 60 ألف رجل، ومنطقة القبائل 16 ألف مقاتل، وعلى رأس هذه القوات القتالية صهر الداوي حسين "إبراهيم آغا".¹⁶¹

وتعتبر معركة "سطاوالي" أول معركة برية بين الجيش العثماني وقوة أوروبية على أرض الجزائر ظهر فيها تواضع إمكانيات العثمانيين البرية وتشتت قواهم وانهيارها أمام الضربات العسكرية الأولى للمدفعية الفرنسية بسبب ضعف القيادة العسكرية المتمثلة في صهر الداوي حسين الذي لم تكن له دراية كافية في الحرب الحديثة عندما هرب من ساحة القتال تاركا وراءه الذخيرة والخيام والمؤونة للجيش الفرنسي الغازي، وبعد هروبه من القتال أستبدل من طرف باي التيطري "مصطفى بومزراق" الذي كان يمتاز بالشجاعة والتجربة وحسن المناورة العسكرية لكنه لم يتمكن من وقف الزحف القوات الفرنسية على مدينة الجزائر بسبب تعيينه المتأخر والتعزيزات العسكرية الفرنسية التي تمكنت من تدمير الدفاعات الجزائرية وفقدت المقاومة جزء كبير من الذخيرة والرجال،، وقامت القطع البحرية الفرنسية بقصف المدينة وفتح الثغرات فيها، عندها أمر القائد الفرنسي "دي بومون" بالتقدم نحو خط الدفاع الأول في برج مولاي حسن واستولوا عليه يوم 03 جويلية بعد مقاومة شرسة من طرف القبائل الجزائرية المدعومة من الجيش العثماني".¹⁶²

في يوم 04 جويلية 1830م، أرسل الداوي حسين وفدا مفاوضا يتكون من كاتبه مصطفى مصحوبا بالقنصل الإنجليزي، إلى جانب "أحمد بوضربة"، و "بن حمدان بن عثمان" خوجة كمتترجمين الى مقر القيادة الفرنسية للتفاوض مع قائد الحملة والاتفاق معه على شروط الاستسلام.

¹⁶¹ حمدان بن عثمان خوجة، المرأة.....مصدر سابق، ص 132.

¹⁶² أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1.....مرجع سابق، ص 29.

فرض قائد الحملة الفرنسية شروطه على الداي حسين وتم توقيع على استسلام الحكومة التركية بتاريخ 05 جويلية 1830م والتي تضمنت الشروط التالية¹⁶³:

1- تسليم مدينة الجزائر وقلاعها الى القوات الفرنسية.

2- تعهد قائد الحملة بالحفاظ على أمن شخص الداي حسين وأملاكه.

3- للداي الحرية المطلقة والرحيل مع أسرته الى جهة تختارها، وفي حال بقاءه بالجزائر سيكون تحت حماية قائد الحملة الفرنسية وكذا الجنود الاتراك وعائلاتهم.

4- تعهد فرنسا باحترام الممتلكات الشخصية والمعتقدات و تقاليد الأهالي واحترام المرأة والشريعة الإسلامية، ولكن القائد الفرنسي لم يحترم هذه العهود و المواثيق كأسلافه النصارى أتجاه المسلمين وقام بإصدار أمرا يوم 08 سبتمبر 1830م يقضي بالاستيلاء على الاوقاف الإسلامية.

و بموجب توقيع الداي هذه الشروط غادر الجزائر يوم 10 جويلية نحو مدينة نابولي بإيطاليا ثم مدينة الإسكندرية حيث قضى بقية حياته الى ان توفي سنة 1838م، كما غادر الجنود الاتراك الجزائر نحو الاناضول يوم 11 جويلية.

بناء على ما سبق، بعد احتلال وسقوط مدينة الجزائر التاريخية في أيدي الصليبيين، شكر القسيس الفرنسي قائد الحملة العسكرية دي بورمون بقوله: "إنك فتحت بابا للمسيحية بأفريقيا"، بالإضافة إلى ذلك بعثت فرنسا مذكرة رسمية إلى الحكومات الأوروبية تخبرها بالقرارات التي اتخذتها.¹⁶⁴، كما أكدت أن هذه الاستعدادات العسكرية تستهدف الجزائر لوحدها وذكرت أن السبب الرئيسي للغزو يتمثل في الثأر لشرفها في حادثة المروحة دون ذكر الأسباب الحقيقية من وراء الغزو العسكري والمكاسب العظيمة التي تحققها اقتصاديا وسياسيا وعسكريا في كل منطقة شمال إفريقيا، واتخذ هذا القرار دون أن يستقر على هدف واضح من الحملة. هل هي مؤقتة لإرغام الداي على قبول مطالب فرنسا ؟ أم لاحتلال الجزائر.؟

¹⁶³ جمال قنان ، معاهدات الجزائر.....مرجع سابق، ص230.

¹⁶⁴ حنفي هلاليلي، مرجع سابق، ص85.

*2-العلاقات مع انجلترا:

مع مطلع القرن السادس عشر بدأت العلاقات بين الجزائر وانجلترا، إذ كانت تصدر إلى الجزائر السلاح والبارود مقابل تصدير الجزائر الحبوب والزيوت والأصواف والجلود ومختلف المواد الزراعية وتعفيها من الرسوم.¹⁶⁵، وقد كان الانجليز في البداية محل ترحيب في الجزائر بسبب تدريب البحارة الجزائريين على سير السفن طويلة الصنع التي تعتمد في حركتها على الرياح¹⁶⁶

وعلى العموم كانت العلاقات بين الطرفين خلال نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر سلمية وودية رغم وجود بعض الغارات على الجزائر من حين لآخر حسب الظروف السياسية، وهذا الأمر أصبح مألوفاً لدى الجزائر بحكم الصراع التقليدي بين الإسلام والمسيحية¹⁶⁷، غير أن انجلترا بذلت كل ما في وسعها لإقامة علاقات ودية مع الجزائر وتحاول تعاملها معاملة فرنسا في السلم والحرب لأن هذه الأخيرة هي المنافس القوي لها في البحر المتوسط وبالمقابل تريد فرنسا هي الأخرى إبعاد انجلترا عن مناطقها الحيوية بالسواحل المغربية¹⁶⁸

وقد أدركت انجلترا منذ البداية أن التقارب الجزائري الفرنسي التاريخي ليس من مصلحتها فبدأت تعكر العلاقات بين البلدين مستعملين مختلف الطرف السياسية وأساليب ملتوية ومنها الطلب الذي قدموه للداي مصطفى والسلطان العثماني بقطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا، وعدم تزويد فرنسا بالمواد الغذائية بسبب الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798م، رغم أنهم يعرفون جيداً أن هذا الأخير ليس له سلطان على دايات الجزائر وحكامها إلا في الجانب النفوذ المعنوي، وأن الدايات يعارضون نفوذ وسلوكيات السلطان العثماني كلما تعارض مصالح الجزائر..

لكن الموقف تغير بعد معركة الطرف الأغر (ترافالغار) التي هزمت فيها البحرية الانجليزية الفرنسية بالقرب من جبل طارق وغدت بريطانيا سيدة البحار، وبالتالي تحول الداي نحو انجلترا وعقد معها اتفاقاً سنة 1807م سلم

¹⁶⁵ جمال قنان، معاهدات الجزائر.....مرجع سابق، ص230.

¹⁶⁶ أحمد السليمان، النظام السياسي للجزائر.....مرجع سابق، ص80.

¹⁶⁷ العربي الزبيري، المدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1985، ص69.

¹⁶⁸ جمال قنان، معاهدات الجزائر.....مرجع سابق، ص234.

بموجبه المراكز الفرنسية بالشرق الجزائري للانجليز مقابل عشرة آلاف جنيه لمدة عشر سنوات، إلا أن الانجليز لم يستفيدوا كثيرا من هذا الامتياز"¹⁶⁹

وفي سنة 1810م أرسلت انجلترا ذخيرة بحرية وعسكرية إلى الجزائر للتعويض عن خسائرها جراء الحروب الأوروبية، ولتعزيز العلاقات بين الطرفين تم ترقية نائب القنصل إلى منصب القنصل العام وقدمت انجلترا كالعادة الهدية السنوية للداي..

ومن مظاهر الودية بين الطرفين توسط بريطانيا بين إيالة الجزائر والبرتغال، إذ أبرم صلحا كان لصالح داي الجزائر، وفي سنة 1812م تحصلت بريطانيا بدورها على أمن صقلية بعد أن سيطرت عليها."¹⁷⁰

وبعد انتهاء الحروب في أوروبا غيرت انجلترا سياستها تجاه الجزائر وأصبحت عدائية، وخلال انعقاد مؤتمر فيينا 1815م طرحت انجلترا على الدول الأوروبية المنعقدة فكرة القضاء على القرصنة البحرية التي فرضتها دول المغرب الإسلامي (الجزائر-تونس، طرابلس الغرب) وأيدتها في ذلك كل من روسيا القيصرية والنمسا غير أمهما التزمنا الحياد لترددتهم في مواجهة الأسطول الجزائري"¹⁷¹، هنا قررت انجلترا معالجة الموقف بصفة منفردة والذي نجم عنه قصف مدينة الجزائر سنة 1816م في حملة اكسماوت متحالفة مع مملكة الدانمرك ضمن أسطول مشترك وتجلى فيها التحالف والتكتل الصليبي ضد إيالة الجزائر مما أدى إلحاق خسائر جسيمة بالأسطول البحري الجزائري الراسي بالميناء وتدمير قسم كبير من مدينة الجزائر وسكانها الأمر الذي أضطر داي الجزائر إلى توقيع مكرها وتحت الضغط العسكري اتفاقية 30 أوت 1816م."¹⁷²

3- العلاقات مع اسبانيا:

¹⁶⁹ صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي.....مرجع سابق، ص193.

¹⁷⁰ مولود قاسم بايت بلقاسم، مجلة الثقافة، العدد: 85، ص40.

¹⁷¹ رزقي شويتام، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800-1830م، دار الكتاب العربي، الإسكندرية، دس، ص142.

¹⁷² رزقي شويتام، نهاية الحكم العثماني.....ص145.

إن الصراع الذي كان في منطقة المغرب الإسلامي والحوض الغربي من المتوسط والمغرب الأوسط تحديدا مسرحا له طيلة القرنين 15 و16م يعود أساسا إلى حرب الاسترداد التي قادتها الكنيسة الصليبية في اسبانيا لطرده المسلمين الأندلسيين من الجزيرة الأيبيرية من أجل استرجاع الأندلس نهائيا من أيدي المسلمين.

إن النزعة الصليبية كانت سببا رئيسيا وذريعة لمحاربة المسلمين في عقردارهم ورغبة ملوك اسبانيا وساستها في إقامة حاميات عسكرية طول السواحل المغربية بسبب حالة الضعف والتفكك الذي ساد المنطقة المغربية وافتقارها لسلطة مركزية قوية تفرض هيبتها وقوتها على الصعيد المحلي والخارجي، بحيث صارت المنطقة عبارة عن كيانات مستقلة كل تحاول فرض سيطرتها على الأخرى مما سبب التوسع الصليبي على السواحل المغربية¹⁷³

*-التحركات الاسبانية على سواحل الجزائر.

تمكن الكاردينال الصليبي "خيمينيس" بدعم مباشر من الكنيسة المسيحية من احتلال المرسى الكبير بوهران سنة 1505م، ومدينة مسرغين 1507م، ومدينة وهران 1509م، ومدينة بجاية 1510م، وتنازلت مدينة الجزائر وأعيانها عن جزيرة "البيينون" المقابلة للمدينة وتحولت بذلك إلى قاعدة عسكرية اسبانية، وتوسع الاحتلال الاسباني نحو مدينة طرابلس الغرب مروراً بمدينة تونس، وبذلك تمكن الأسبان من تطويق كامل المغرب الإسلامي وسواحل¹⁷⁴

*-الحملة الاسبانية على سواحل الجزائر: 1:-حملة شرلكان ضد مدينة الجزائر 1541م -

كان الملك الاسباني شارلكان يحلم دائما القضاء على الوجود الاسباني في الحوض المتوسط وبالجزائر خاصة لذلك أعد حملة عسكرية عظيمة ضد مدينة الجزائر بفضل انتصاره في تونس 1835م وطرده العثمانيين الأتراك منها، وكان يهدف من الحملة ما يلي:

*محاولة الملك شارلكان تخفيف الضغط على النمسا إثر محاصرة سليمان القانوني لمدينة فيينا سنة 1522م.

¹⁷³ مريم رزاق بكرة، أهمية حوض المتوسط في العلاقات المتوسطية وانبعث نشاط بحري جزائري في عصر حديث، مجلة: معارف، ص160.

¹⁷⁴ محمد فايز فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح الإسلامي الى الاحتلال الفرنسي، ط1، دمشق، 1969، ص16.

*ازدياد العمليات البحرية للإخوة برباروس ضد السواحل الاسبانية والجزر البلياروسردينيا.

*اعتبار مدينة الجزائر وكر القرصنة في المتوسط.

تمكنت المقاومة الجزائرية تحت لواء "حسن باشا" و"الحاج باشا" ومعه قوة معتبرة من المجاهدين في إلحاق هزيمة نكراء بالجيش النصراني الاسباني الذي انسحب نحو مدينة بجاية المحتلة مخلفا وراءه خسائر معتبرة والتي أصبحت غنيمة للمجاهدين الجزائريين.¹⁷⁵

*-أسباب انتصار المقاومة ضد الجيش الصليبي الاسباني:

أجمعت المصادر الاسبانية والغربية كلها أن سبب الهزيمة المروعة أمام أسوار مدينة الجزائر تعود أساسا إلى العاصفة الهوجاء والرياح العاتية التي عرقلت تنفيذ العمليات النوعية للجيش الصليبي وخاصة بعد محاصرتها بأكثر من 36 ألف جندي من قوات التحالف من مختلف الجنسيات الأوروبية، أما المصادر المحلية والإسلامية فقد ذكرت ما يلي:

*الاستعداد المحكم لسكان مدينة الجزائر الذين نزلوا إلى ميدان الجهاد استجابة للدعوات المرابطين والفقهاء الذين وقف إلى جانبهم الفئات الأندلسية الراغبة في الانتقام من الأسبان، قابله في ذلك عناد الإمبراطور شارلكان واستخفافه بإمكانيات المقاومين الجزائريين¹⁷⁶

*2- حملة الكونت أوريلي 1775م.

لقد كان للظروف السياسية والاقتصادية التي مرت بها البلدان أثر كبير في تهدئة الأجواء التي سمحت بتقارب وجهات النظر التي أدت لاحقا إلى عقد معاهدة السلام بين الطرفين سنة 1786م، وبعدما اقتنعت اسبانيا المسيحية بضرورة التخلي عن سياستها العدوانية تجاه الجزائر منذ القرن 16م وتجسدت في الحملات العسكرية المتكررة التي قادها ملوك وأمراء أسبان ضد إيالة الجزائر، غير أن الحملات العسكرية عجزت على ترويض الجزائر وحكامها وفرض

¹⁷⁵أحلام زواقي يمين، حملة شارلكان على الجزائر 1541م: الأسباب والتداعيات: "مذكرة ماستر في التاريخ الحديث، جامعة اسطمبولي، معسكر، ص57.

¹⁷⁶المرجع نفسه، ص67.

شروطها عليها"¹⁷⁷، ولما علمت فشلت هذه السياسة حاولت التقرب وانتهاج الأساليب الودية معها مع نهاية القرن 18م ليتوصل بذلك الطرفان إلى توقيع أول معاهدة تجارية بينهما سنة 1786م.¹⁷⁸

*3- دوافع حملة الكونت "أورييلي":

بسبب فشل سياسة التقارب وإرساء سلام دائم بين البلدين وإعطاء تسهيلات تجارية للأسبان أدى ذلك إلى فشل المفاوضات والتوصل إلى حلول نهائية، دفع بملوك اسبانيا إلى الدفع نحو الحلول العسكرية عبر حملة "الكونت أورييلي" التي ساهمت فيها العديد من العوامل منها:

*رغبة اسبانيا استرجاع مدينة وهران بعد تحريرها خلال الفتح الأول 1732م.

*رغبة اسبانيا تحطيم القضاء على مركز الدولة الجزائرية من خلال احتلال مدينة الجزائر مقر الداي والحكومة الجزائرية.

*رغبة اسبانيا استرجاع أمجادها في البحر الأبيض المتوسط بالقضاء على البحرية الجزائرية.

أصدر الملك الأسباني كارلوس الثالث "تجهيز حملة عسكرية من أجل دحر "عش" القرصنة وإعطاء قيادة الحملة إلى الكونت أورييلي، كما أصدر الملك أمرا إلى قادة ومسيري الموانئ الرئيسية في اسبانيا بضرورة الاستعداد في تجهيز الأسطول الذي أصبح يتكون من: 500مركب و06سفن حربية حديثة، 12ألف جندي من المشاة والخيالة والفرسان، إضافة إلى 176 قطعة مدفعية"¹⁷⁹.

ومن جهة الطرف الجزائري، قام الداي محمد عثمان بإصدار أوامره وأعلن حالة الطوارئ العامة في البلاد، وحث السكان على ضرورة الدفاع والتعاون، كما استجاب باي وهران لنداء الجهاد فأرسل أربعة آلاف من رجال

¹⁷⁷ محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تح: محمد بن عبد الكريم، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص30.

¹⁷⁸ مؤيد محمود محمد المشهدي، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1518-1830م، مجلة: الدراسات التاريخية والحضارية الجامعية، العدد:16، 2003، ص419.

¹⁷⁹ أحمد الشريف الزهار. مذكرات نقيب الأشراف، نشر أحمد توفيق المدني، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1974، ص26.

الصبايحية، وأرسل باي قسنطينة عشرين ألف جندي انكشاري بحيث عمرت القلاع والحصون وتم تنظيم الجيش على أسس جديدة، وإبعاد الأسرى المسيحيين خارج المدينة الجزائر خوفا من إعلان التمرد والعصيان.¹⁸⁰

يذكر أن القادة الأسبان "مازايدو" المرافقين لحملة أوريلي على مدينة الجزائر: "...بعد أن تجمعت الحملة في خليج الجزائر في 01 جويلية طلب قائد الحملة من الجنود النزول إلى البر رفقة الأفواج الأولى للجيش متكونة من 12 قطعة مدفعية، إلا أننا جابهتنا رياح قوية يوم 03 جويلية مما صعب عملية الإنزال التي قرر لها أن تكون يوم 04 جويلية، ونتيجة لهذه الصعاب كلفت بوضع خطة نهائية بنقل الجنود واختيار السفن التي ستحملهم إلى الشاطئ وتنزل قواتها المشكلة من 7600 جندي وضابط رغم الظروف الطبيعية الصعبة واستمرار هطول الأمطار دون توقف.¹⁸¹

تعتبر حملة أوريلي الاسبانية حملة فاشلة كالحملات العسكرية السابقة رغم الإمكانيات العسكرية والبشرية واللوجستية التي سخرت لنجاح الحملة ووضعت تحت تصرف قائدها، ويعتبر فشل الحملة ضد مدينة الجزائر ضربة قوية للملك الاسباني "كارلوس الثالث" في تحقيق حلم أجداده وهذا راجع إلى المقاومة المحلية من جهة، وخطة الادي محمد عثمان الذي قام برفع مكافآت رياس البحر ودفع أجور شهرية لهم إضافة إلى رفع تصيبهم من الغنائم.¹⁸²

4.*- العلاقات مع البرتغال:

لقد كانت العلاقات بين الجزائر ومملكة البرتغال غير ودية في غالب الأحيان لأن البرتغال كانت تابعة وحليفة لأسبانيا في معظم فترات تاريخها وقادت سلسلة من الهجمات البحرية ضد موانئ الجزائر واحتلت الموانئ المغربية تحت لواء الكنيسة ومحاربة المسلمين، كما لعبت الكنيسة الكاثوليكية دورا رئيسيا في تقسيم وتوزيع النفوذ بين اسبانيا والبرتغال، فكان نصيب ملوك البرتغال السواحل الأطلسية بمقتضى معاهدة "تورديسيلاس" 1494م بينهما لخنق وإخضاع المغرب بإقامة الحصينات في المدن المحتلة والتي أشرف عليها بابا الكنيسة شخصيا، ومن جهة ثانية

¹⁸⁰ نفسه ،، ص 28.

¹⁸¹ محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضيةمصدر سابق، ص 36.

¹⁸² نفسه، ص 147.

كان حوالي 615 برتغاليا في سجون مدينة الجزائر وتوسطت انجلترا لتحرير هؤلاء الأسرى بدفع مبلغ 690337 دولار فدية، ووافقت البرتغال على المبلغ المقترح وتم إطلاق سراح الأسرى من السجون بالجزائر¹⁸³.

5-العلاقات الجزائرية-الأمريكية:

أبرمت إيالة الجزائر وحكومة الولايات المتحدة الأمريكية علاقات سياسية قبل سنة 1783م عندما حاولت الحكومة الأمريكية ربط علاقات اقتصادية مع العالم الخارجي وخاصة مع المغرب الإسلامي، وفي سنة 1795م تم توقيع معاهدة سلام بين البلدين بموجبها تدفع الولايات المتحدة مبلغا ماليا سنويا للجزائر.

مع مطلع القرن 19م توترت العلاقات بين البلدين بسبب رفض حكومة الولايات المتحدة دفع الاتاوات السنوية المحددة في معاهدة السلام مما دفع بالداي "الحاج علي" إلى طرد قنصلها سنة 1812م وقام بمهاجمة السفن الأمريكية التجارية في عرض البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، لذلك قررت الولايات المتحدة بدورها إعلان الحرب على الجزائر سنة 1814م، وقامت اشتباكات بحرية بين الطرفين أنهت بمقتل راييس حميدو أبرز قائد في البحرية الجزائرية خلال حكم الدايات وتخريب سفنه الحربية، كما فرض قائد الاسطول الأمريكي على الداوي حسين قبول بمبدأ التفاوض التي انتهى بتوقيع معاهدة 1815م التي نصت على ما يلي:

1-إلغاء الاتاوة السنوية الأمريكية نحو إيالة الجزائرية.

2-إطلاق سراح الأسرى الأمريكيين والمسيحيين من السجون بالجزائر دون دفع الغرامات المالية.

¹⁸³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر، ج1.....مرجع سابق، ص253.

الخلاصة:

مهدت اتفاقية الولايات المتحدة الأمريكية وإيالة الجزائر للقوة الأوروبية شن الهجمات البحرية عليها قصد الحصول على الامتيازات التي حصلت عليها الولايات المتحدة ومنها على وجه الخصوص إطلاق الأسرى المسيحيين والحصول على الامتيازات الاقتصادية والنفوذ السياسي في الحوض الغربي من البحر المتوسط على غرار الدول الأوروبية الكبرى.

*4/ المحاضرة الرابعة: -الدولة و المجتمع في الجزائر أثناء الفترة العثمانية

*أولا: نظام الحكم:

اتصف نظام الحكم الذي عرفته الجزائر خلال العهد العثماني بتعاقب عدة أنظمة سياسية عبر فترات تاريخية محددة أولها فترة حكم البربايات 1518-1587م التي مكنت استقرار الحكم العثماني بالجزائر بفضل جهود الإخوة برباروس وانتهت بوضع حد لنظام البربايات من طرف السلطان العثماني.

استبدل السلطان نظام البربايات بنظام الباشاوات سنة 1587-1659م الذي حددت فترة الباشا إلى ثلاث سنوات، ثم استبدل من جديد بنظام الآغاوات الذي كانت فتره قصيرة بسبب صراع الانكشارية ورياس الحكم على الحكم وفوضى الشؤون الإدارية والضغطات الخارجية، أما المرحلة الرابعة ولأخيرة من نظام الحكم فهي فترة حكم الدايات والتي تميزت بطول عهدها بدون انقطاع من 1671-1830م عرفت الجزائر خلالها مقومات السياسة والاستقلال الفعلي عن الدولة العثمانية.

*1-1- فترة حكم البربايات 1518-1589م:

- تعتبر مرحلة البايلربايات بداية إلحاق الجزائر رسميا بالدولة العثمانية سنة 1519م، كان السلطان العثماني هو الوحيد صاحب الصلاحية في تعيين بربايات وأولى أهمية كبرى لهم وهذا ما ساعد على ضم أقطار المغرب الإسلامي التي تضم الجزائر، تونس، طرابلس، تحت راية الدولة العثمانية وهذا ما جعل المؤرخون يطلقون عليهم أسم "ملوك الجزائر"،

كان بلربايات الجزائريينهم السلطان العثماني على أساس الشجاعة والذكاء وحسن التسيير، ولشهرتهم في مقاتلة الأعداء كخير الدين، صالح رايس، حسن بن خير الدين، ولثقته الكبيرة فيهم بعد استشارة العارفين بالإيالة وأحوالها، إذ نجد السلطان بعد تعيينه حسن بن خير الدين للمرة الرابعة يوجه رسالة إلى "علج علي" قبطان الأسطول العثماني يستشيريه فيمن يراه مناسبا لتولي هذا المنصب في حال تنازل حسن بن خير الدين عنه"

كان حكام الجزائر من البايبربايات من أصول متعددة، إذ نجد منهم العلج "كحسن آغا، حسن آغا حسن قورصو والتركي كقائد صفا ومحمد باشا تركلي، والعربي صالح رايس وعرب أحمد، والكرغلي كحسن بن خير الدين. لقد امتازت، هذه الفترة السياسية رياس البحر لم يكونوا يعملون لحسابهم أو لحساب طائفة معينة، أو معارضة شخص يعينه السلطان على حكم الإيالة وكان وفاؤهم كبير للسلطان الذي تربطهم به وحدة المصير في الصراع الإسلامي-المسيحي".¹⁸⁴

كما عرفت هذه الفترة بتحسين البلاد من خلال بناء الحصون وتعزيز الدفاعات البحرية إذ بمجرد تحرير حصن البينيون 1529م هدمه خير الدين وبني ما عرف بحوض خير الدين وذلك لتأمين السفن من الرياح الشمالية الغربية، وبناء القلاع"¹⁸⁵، وأنشأ حصنا ذا أربعة طوابق يشتمل على فوهات لرمي النيران لحماية المدينة وحوض السفن من أي خطر خارجي، بالإضافة إلى بناء المساجد، القصور، والحمامات، التوسع العمراني لمدينة الجزائر وحي القصبة. وما فتئ خلفاء خير الدين يولون اهتماما كبيرا لميناء الجزائر باعتباره المنطقة الأكثر عرضة للخطر الأجنبي والملاجأ الآمن لسفنهم ونقطة الاتصال الرئيسية مع العالم الخارجي، إذ أضيفت له تحصينات جديدة في سنوات 1556م، 1568م، 1573م¹⁸⁶، كما تم تحصينه بالأسوار والأبراج والخنادق. خلال معظم فترة القرن السادس عشر كانت السلطة تمارس من طرف البايبربايات مباشرة أو عن طريق نوابهم، وكانت سلطتهم تصل إلى باشاوات تونس وطرابلس، وكانوا يتصرفون باستقلالية، ويتمتعون بثراء كبير.

¹⁸⁴ عبد القادر حليبي، مدينة الجزائر. نشأتها وتطورها.....مرجع سابق، ص 187

¹⁸⁵ نفسه، ص 189.

¹⁸⁶ مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر.....مرجع سابق، ص 62.

وفي مجال الدفاع عن الحدود الجزائرية تمكن البلربايات من صد حملة شرلكان الصليبية سنة 1541 م في عهد حسن باشا خليفة خير الدين وإلحاق الهزيمة بملك اسبانيا ومن ورائه جيوش أوروبا المسيحية، وتبوأّت الجزائر منذ ذلك الحين مكانة معتبرة وأصبحت تدعى "الجزائر المحروسة"¹⁸⁷

حكم هذه الفترة حوالي 20 حاكما عاد عدد منهم إلى الحكم مرتين أو أكثر، وكان عدد منهم يحملون لقب البايبرباي كحسن بن خير الدين، صالح رايس، علج علي، في حين كان آخرون عبارة عن خلفاء للبايبرباي ينوبون عنهم في الحكم عندما يستدعون من قبل السلطان.

كان بايبربايات الجزائر من أصول متعددة، إذ نجد منهم العلج "كحسن آغا" وحسن قورصو، والتركي كقائد صفا ومحمد باشا تكرلي والعربي "كصالح رايس" وعرب أحمد" والكرغلي كحسن بن خير الدين، وقد امتازت هذه الفترة بحكم رياس بحر كبار لم يكونوا يعملون لحسابهم الخاص أو لطبقة رياس البحر، ولم يكونوا يسعون لمعارضة الشخص الذي يقلده السلطان إمرة الجزائر، وقد أدى بهم الأمر إلى حد الانضمام إلى مرشح السلطان محمد تركلي" ضد الانكشارية رغم عدم كونه من طائفة الرياس، وساعده إلى الوصول إلى السلطة وفاء منهم للسلطان الذي تربطهم به وحدة المصير في الصراع الإسلامي-المسيحي الذي شهده القرن السادس عشر، ولم يحدث أن حاولت طائفة الرياس فرض مرشحها على السلطان أو الأوجاق-حسب العديد من المصادر-،¹⁸⁸ غير أن المؤامرات في الخفاء بقيت مستمرة من الجانب الاسباني ومع الدولة السعدية على الحدود الغربية للجزائر، ولم يقف نشاط البلربايات عند هذا الحد، بل أبلوا البلاء الحسن خلال مساهمتهم في خوض الجهاد المشترك في المتوسط والذي أنجر عنه توسيع النفوذ العثماني بالمنطقة على حساب النفوذ الاسباني¹⁸⁹.

حكم هذه الفترة حوالي 20 حاكما عاد عدد منهم إلى الحكم مرتين أو أكثر، وكان عدد منهم يحملون لقب البايبرباي كحسن بن خير الدين، صالح رايس، علج علي، في حين كان آخرون عبارة عن خلفاء للبايبرباي ينوبون عنهم في الحكم عندما يستدعون من قبل السلطان.

¹⁸⁷ نفسه، ص63.

¹⁸⁸ Braudel Fernand. op. Cit. p99

¹⁸⁹ Braudel Fernand. op. Cit. p101.

تمكن بايلربايات الجزائر من الدفاع عن حدود الجزائر سنة 1541م بصد حملة شارلكان الصليبية خلال حكم حسن بن خير الدين آغا وإلحاق الهزيمة به وبذلك لم تتجرأ أوروبا على إرسال حملة ضد الجزائر، وتبوءت الجزائر منذ ذلك الحين مكانة معتبرة وأصبحت تدعى "الجزائر المحروسة".¹⁹⁰ غير أن المؤامرات في الخفاء بقيت مستمرة من الجانب الاسباني ومع الدولة السعدية على الحدود الغربية للجزائر، ولم يقف نشاط البلبايات عند هذا الحد، بل أبلوا البلاء الحسن خلال مساهمتهم في خوض الجهاد المشترك في المتوسط والذي أنجر عنه توسيع النفوذ العثماني بالمنطقة على حساب النفوذ الاسباني.

ظلت الدولة العثمانية تعين على المغرب الإسلامي بلربايات إلى وفاة "علج علي" سنة 1587م، كانت هذه الفترة من أخصب فترات الحكم العثماني بالمغرب الأوسط من حيث النشاط في ميدان التوسع وفي ميدان الصراع مع أوروبا بصفة عامة. وظل البلبايات على ولائهم للدولة العثمانية والسلطان العثماني وأن كان على مضض أحيانا، لكن القسطنطينية كانت تخشى تزايد نفوذهم وقوتهم لذلك أسرع إلى إلغاء هذا المنصب ملتجئة إلى تعيين عدة مسؤولين يخضعون لها مباشرة، كان لهؤلاء البلبايات أن يحكموا إيالة الجزائر بصفة مباشرة، لم يكن هؤلاء مقيدين بمواقف الديوان الذي كان يمثل الانكشارية أساسا، لقد كانوا من رجال البحر لا من الجيش البري"¹⁹¹

*دور البلبايات في المجال الداخلي:

وضع البلبايات أسس الجزائر الحديثة، إذ عززوا نفوذ السلطة المركزية، وخلال هذا العهد عرفت الجزائر حدودا ثابتة، وعاصمة رسمية، ووضع التنظيمات الإدارية الحديثة، قسمت فيها الجزائر إلى مقاطعات عرفت البايليكات، كان أول تنظيم إداري قام به حسن بن خير الدين في الفترة الثالثة من حكمه بعد توليه الحكم سنة 1565م، ولهذا التقسيم الإداري أهمية كبيرة في التنظيم والذي يقصد به تقسيم الدولة إلى أجزاء لتسيير إدارتها، ووضع خريطة إدارية على أساس معايير يجب الأخذ بها بهدف توجيه مواقع وتجهيزات الاقتصادية والأنشطة البشرية وعلاقاتها بحركات السكان ومكان استيطانهم.¹⁹²

¹⁹⁰ Braudel Fernand. op. Cit. p99

¹⁹¹ جون وولف، الجزائر وأوروبا 1500-1830م، تر: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2009 م، ص89.

¹⁹² حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2008، ص5.

قبل البدء في الحديث عن خصائص هذا العهد، وأهم الأحداث التاريخية التي جرت فيه، لا بد من الإشارة إلى أسباب تغير النظام السابق، لقد كان ولاية عهد البايبراي أقوياء¹⁹³، وأصحاب نفوذ واسع تخطت سلطتهم الجزائر إلى تونس، وطرابلس بحكم أنهم أصحاب فضل في فتح هذين البلدين وإحاقهما بالدولة العثمانية التي كافأهم على ذلك بإعطائهم امتيازات واسعة، ولما كانت مدة حكم هؤلاء البايبرايات غير محدودة فكثيرا ما تمتد فترة الواحد منهم عدة سنوات في منصبه ويصبح صاحب مركز قوي .

ويبدو أن الأسباب متعددة ولعل أهمها تخوف السلطان العثماني من تحول الجزائر نحو الاستقلالية خصوصا بعد أن عقدت الدولة العثمانية معاهدة مع عدوها ومنافستها في حوض المتوسط اسبانيا سنة 1580م، وبالتالي تحول مجال سياستها نحو الشرق¹⁹⁴، وأصبحت التحديات هناك تقتضي منها حضورا أكبر مما قد يشع البايبرايات الذين تخضع لهم تونس وطرابلس الغرب على ضم المغرب وتشكيل وحدة سياسية متماسكة تستقل عن مقر السلطة العثمانية في اسطنبول، ويبدو هذه المخاوف غذاها السفراء الغربيون بعاصمة الخلافة الذين كانوا يخشون من وقوع وحدة سياسية في الضفة الجنوبية للمتوسط، ومن جهة أخرى بدأت الدولة العثمانية تشتم رائحة التمرد ومحاولة الانفصال عنها، والاستقلال بهذه البلاد، فتقرر تقصير مدة حكم الوالي إلى ثلاث سنوات فقط، والتنقيص من امتيازاته السابقة¹⁹⁵، واختصاصاته، وتغيير لقبه إلى الباشا، وقد قلصت الامتيازات التي كانت سابقا البايبرايات وحصرت مهمته في جمع الضرائب والمحافظة على الأمن وتنفيذ تعليمات السلطان وتجنيد الجيش أثناء الأزمات والجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية.

-ويذكر بعض المؤرخين أن الانكشارية هي التي ظلت تثير تخوفات وشكوك الباب العالي في نية البايبرايات طوال فترة حكمهم، الأمر الذي جعل من رجال الدولة العثمانية يرون أن السلطة في الولايات الثلاث: الجزائر، تونس، طرابلس تحت حكم رجل واحد قد يشكل خطرا على الإمبراطورية العثمانية¹⁹⁶، وبالتالي لابد من تقسيم الحكم وفصل الولايات عن بعضها البعض، وإسناد كل إدارة إلى باشا يحكم لمدة ثلاث سنوات، وذلك لإحكام السيطرة على

¹⁹³ سعد الله أبو القاسم تاريخ الجزائر الثقافي ج1، 1500-1830، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001، ص389.

¹⁹⁴ سعد الله، تاريخ الجزائر.....مرجع سابق، ص352

¹⁹⁵ سعد الله، تاريخ الجزائر.....، ص353.

¹⁹⁶ سعيدوني/البوعبدلي، الجزائر في التاريخ العثماني، ج4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص37

البلاد ومنع حدوث أي تمرد ضدها، وبهذا تكون الدولة العثمانية قد فكرت في تأمين وحدة الإمبراطورية مانعة أن تكون إدارة شمال إفريقيا كله بيد شخص واحد ولمدة طويلة .

لجأ السلطان العثماني إلى تعيين باشاوات يديرون الإيالة لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد، إن قدم الباشا الهدايا الثمينة للموظفين الكبار في القسطنطينية، إنه النظام المطبق على البايات أو حكام المقاطعات بالجزائر، ومن شأن هذا النظام الجديد إضعاف سلطة الدولة العثمانية، فهؤلاء الباشاوات لمدة قصيرة لم يكونوا منشغلين بتأكيد سلطة السلطان الأعظم في الإيالة فسمحوا للقوة الحقيقية في الإيالة أن تفلت من أيديهم، لأنهم لم يعودوا شخصيات سياسية عسكرية-كما كان في عهد البايالربايات"¹⁹⁷، بل أصبحوا يذهبون إلى شمال إفريقيا لجمع المال الذي كان عليهم أن يدفعوه إلى ضباطهم"¹⁹⁸

لقد دعم هذا النظام مركز الانكشارية في الإيالة على حساب طائفة رياس البحر التي كانت تحظى بتعاطف البحرية العثمانية وتعاطف الأهالي كذلك لما كان لها من دور اقتصادي الذي يتمثل في تنشيط الحركة التجارية في مدينة الجزائر، و من جهة ثانية، كانت الانكشارية مكروهة من الأهالي ومن سكان الأرياف بصفة خاصة لأنهم كانوا يشعرون بوطأتها أكثر من غيرهم."¹⁹⁹

سادت فترة الباشاوات فوضى كبيرة وعدم الاستقرار، فالباشاوات المعينين لفترة محددة بثلاثة سنوات تمكن القليل منهم من إتمام عهده، فقد كانوا أحيانا يضطرون للهروب بعد صراعات مع الأوجاق أو طائفة الرياس"²⁰⁰، كما ظهر تناوب 2 و3 باشاوات على السلطة في نفس السنة، فمثلا في سنة 1594م مصطفى باي وخضر باشا، وفي عام 1517م ظهر كوسة مصطفى وسليمان باشا والشيخ حسين باشا، وهذا يدل على عدم الاستقرار الذي ميز هذا العصر، وفي هذا الصدد يذكر المؤرخ الفرنسي: أ. جوليان:"كان هذا العهد سلسلة متواصلة الحلقات من المؤامرات والانتفاضات و المذابح واكتفى الباشا فيها بمظاهر الحكم فكان يستقبل عند قدومه من القسطنطينية في موكب بهيج ويقوم في قصر فخم ويحاط بالتبجيل والتكريم، غير أنه كان عليه أن يوافق على قرارات ديوان الانكشارية ليُدوم

¹⁹⁷ د.دوغرامون، العلاقات بين فرنسا وإيالة الجزائر في القرن السابع عشر، المجلة الإفريقية، العدد: 23، ص.8.

¹⁹⁸ ألبير دو فولكس، بحرية إيالة الجزائر، المجلة الإفريقية، العدد: 13، 1869، ص.390.

¹⁹⁹ نفسه، ص.391.

²⁰⁰ د.دوغرامون، العلاقات بين فرنسا وإيالة الجزائرمصدر سابق، ص.12.

حكمه، وكان الديوان يجتمع أربع مرات في الأسبوع منها واحدة في القصر للتداول في الشؤون الخارجية ويقرر في آخر الأمر بالإجماع السلم أو الحرب"²⁰¹.

لقد انفرد "خضر باشا" بمحاولة زحزحة وصاية الانكشارية مستعينا الكراغلة الذين أقصوا عن شؤون العامة والقبائل المستعدين دائما للثورة، لكن الانكشارية واجهته بالقوة و البطش مما تسبب في وقوع حرب أهلية بين أنصار "خضر باشا" وأنصار الانكشارية فتسبب بخسائر معتبرة في الأرواح ونزوح الكثير من العائلات من مدينة الجزائر إلى مدينة البليدة، والمدية، ومليانة، مما اضطر السلطان العثماني أن يتدخل في الصراع ويجد مخرجاً للامنة الدائرة بإنهاء مهام "الخضر باشا" وعين مكانه "مصطفى باشا" الذي حاول أن يخضع الانكشارية بالقوة ففشل بدوره في هذه المهمة، مما أدى بالسلطان إلى تعيين "حسن بوريشة" سنة 1599م، ولم يتمكن من البقاء في منصبه إلا عن طريق الترضيات التي كان يقدمها باستمرار إلى الانكشارية وطائفة الرياس على السواء.

وعندما عين "خضر باشا" للمرة الثالثة سنة 1603م كانت الأمور قد تعقدت كثيراً خاصة مع ظهور مشاكل مع فرنسا الحليف الاستراتيجي للدولة العثمانية في أوروبا بعدما تحصلت هذه الأخيرة على امتياز صيد المرجان في القالة منذ عهد خير الدين وأقامت ما يعرف باسم باستيون فرنسا بين مدينتي القالة و عنابة لتحقيق أغراض صيد المرجان والقيام بأعمال تجارية في الشرق الجزائري"²⁰²، وفي سنة 1578م حصلت فرنسا كذلك على امتياز صيد المرجان بالقرب من سكيكدة وأعفي رعاياها من دفع رسوم أخرى غير نسبة 10 بالمائة من قيمة سلهم الواردة إلى الجزائر، و5 بالمائة من قيمة سلهم الصادرة منهم. وطبقا للعلاقات الطيبة بين السلطان العثماني وفرنسا كانت سفن هذه الأخيرة لا تتعرض للهجوم البحرية الجزائرية، بالإضافة أن مؤسسات مرسيليا كانت تسمح للأجانب بالملاحة في البحر المتوسط تحت العلم الفرنسي، وكان رياس البحر يحتجون على ذلك باستمرار وقاموا بمهاجمة السفن الفرنسية، كما قام "خضر باشا" بإحراق المراكب التجارية الفرنسية، الأمر الذي الى تدخل السلطان "مراد الثالث" وكلف "محمد كوسة" باشا جديدا الذي أمر بإلقاء القبض على "خضر باشا" وشنقه ومصادرة أملاكه وأبرم مع الحكومة الفرنسية معاهدة تؤمن السفن الفرنسية في البحر المتوسط، كما تضمن لهذه السفن تعويضات من طرف السلطة الجزائرية

²⁰¹ نفسه، ص 14.

²⁰² ألبير دوفولكس، بحرية إيالة الجزائر،.....مصدر سابق، ص 389.

في حالة ما إذا لحقتها أضرار من القرصنة الجزائرية، كما أعادت المعاهدة بين الطرفين إقامة باستيون القالة الذي خرب من طرف البحرية الجزائرية.

رفض الديوان بالجزائر هذه المعاهدة وأكد أن الباستيون لن يعاد بناؤه، وأن الأسرى المسيحيين لن يطلق سراحهم إلا بعد إطلاق سراح الأتراك الموجودين في مرسيليا ولما اخفق "محمد كوسة عن ثني الديوان عن موقفه المتصلب اتجاه المعاهدة، طلب تدخل الجيش العثماني بعد منح السلطان العثماني كل الصلاحيات لمصطفى كوسة لإنهاء المشكلة وجاء هذا الأخير محاطا بأعداد غفيرة من الرجال مرفقا بالسفير الفرنسي "دو بريفييس" المكلف بمتابعة تنفيذ المعاهدة، لكن الوفد العثماني حاصره السكان في الجنية، فاضطر "مصطفى كوسة" تحت الضغط الشعبي إلى إبعاد الأسطول الذي جاء به من القسطنطينية وكذلك فعل مع السفير الفرنسي، لقد تمكن مصطفى كوسة من تحرير الأسرى الفرنسيين مقابل تحرير الأسرى الأتراك"²⁰³.

على الصعيد الخارجي :

- عمل باشاوات الجزائر على وضع حد لامتيازات التجار الفرنسيين بسبب تأييد فرنسا لاسبانيا في عدوانها على الجزائر، حيث قام الباشا خضر بتحطيم المركز الفرنسي بالقالة وأسرواده، وبالمقابل أخذ الفرنسيون يعتدون على السفن الجزائرية وكان رد الجزائر بالمثل"²⁰⁴، حيث أسر القنصل الفرنسي بالجزائر، وعلى إثر ذلك تعقدت العلاقات الدبلوماسية الفرنسية مع الجزائر من جهة ومع الخلافة العثمانية من جهة أخرى، فاضطرت فرنسا إلى التفاوض وإبرام معاهدة بتاريخ 1628/09/19 م نصت على مايلي"²⁰⁵ :

*إطلاق سراح الأسرى من الجانبين.

*التوقف عن الأسر من الجانبين.

*مسألة البواخر الفرنسية في البحر.

غرامون، العلاقات بين فرنسا.....مصدر سابق، ص،15.²⁰³

²⁰⁴ سعيدوني/ البوعبدلي، الجزائر في التاريخ العثماني.....مرجع سابق، ص66.

²⁰⁵ زيد العابدين شمس الدين، تاريخ الدولة العثمانية.....مرجع سابق، ص243.

* قنصل فرنسي بالجزائر يتمتع بحصانة دبلوماسية .

* بناء المركز الفرنسي التجاري بالقالة.

الجدير بالذكر أن فرنسا لم تحافظ على نصوص المعاهدة وقامت بالاعتداء المتكرر على السفن الجزائرية وشواطئها، وحين طالب الفرنسيون بوقف أعمال القرصنة ضد سفنهم في البحر المتوسط، رد الباشا مطالبا بإعادة المدفعين البرونزيين الذي أخذهما القرصان "سيموندونسا" وإطلاق سراح الأسرى الأتراك الذين وقعوا بين أيدي الفرنسيين منذ بداية القطيعة الأمر الذي أدى إلى تدهور التجارة بمرسيليا. لم يجد الملك الفرنسي بدا من أن يأمر بتحرير الأتراك الموجودين في الموانئ الفرنسية فأرسل 40 منهم كدفعة أولى سنة 1617م غير أن الديوان بمدينة الجزائر ظل مصرا على مطالبه كاملة.²⁰⁶ ورغم استلام الجزائر قسم من الأسرى الأتراك إلا أن الديوان ظل يطالب باستعادة المدفعين البرونزيين من السلطات الفرنسية، زيادة على ذلك أرسل الديوان حملة إلى الباستيون ذبحت العديد من الجنود والعمال الفرنسيين الذين كانوا به وألقت القبض على الباقين منهم²⁰⁷، وأمام هذه التطورات الخطيرة قدم الملك الفرنسي شكواه لحليفه السلطان سليمان القانوني عن طريق سفيره في الأستانة، ومن جهة ثانية منع الملك الفرنسي رعاياه المتاجرة في الموانئ الجزائرية وتلا ذلك تخريب باستيون فرنسا في القالة، فتضرر الأهالي الذين كانوا يتعاملون مع تجار فرنسا خاصة قبيلة "الحنانشة" الذين تمردوا على السلطة التركية، وتضامن معهم صناع المرجان في مدينة الجزائر، كما انضمت إلى التمرد فرق الحرس من الزواوة الذين ضموا إلى التنظيم العسكري العثماني في عهد حسن بن خير الدين باشا.²⁰⁸

نظرا للظروف الداخلية و الخارجية الصعبة التي مرت بها الجزائر العثمانية وخاصة منها فقدان 25 قطعة بحرية نتيجة الزوبعة البحرية التي ضربت ميناء مدينة الجزائر، واستعداد فرنسا لإعادة المدفعين البرونزيين للجزائر، كل هذه العوامل كانت وراء توقيع معاهدة جديدة مع فرنسا يوم 21 مارس 1619م، والتي أكدت على احترام "كل

غرامون، العلاقات بين فرنسا.....مصدر سابق، ص16.²⁰⁶

نفسه، ص19.²⁰⁷

عمار بوحوش، التاريخ السياسي.....مرجع سابق، ص59.²⁰⁸

معاهدات الامتيازات المبرمة بين العاهلين العثماني و الفرنسي، وأن كل قرصنة أو غارة وكل الأعمال العدائية ستتوقف بين الطرفين، بالإضافة إلى تبادل الأسرى، وتبادل القناصل لضمان تطبيقها²⁰⁹

بناء على ما سبق، لم تكن هذه المعاهدة قادرة على إنهاء مشاكل القرصنة التي كانت قضية حياة أو موت بالنسبة لا للرياس البحر فقط، بل بالنسبة لغيرهم من التجار ومن المسؤولين في السلطة وهذا ما أكدته أحداث فبراير 1620م حين استولى "رجب راييس" على سفينة مرسيلية يقودها القبطان "دريقات" يعد أن علم بتوقيع المعاهدة الجزائرية-الفرنسية- قتل رجب راييس كما من وجد على ظهر السفينة حتى لا يبقى أي شاهد على فعله.²¹⁰

أحدثت هذه الحادثة هيجانا حقيقيا من أسر الضحايا وساروا إلى فندق "ميوليهون" لتصفية الأتراك الذين كانوا بداخله وهم أعضاء الوفد الجزائري الذي أرسل إلى مرسيليا لاستلام الأسرى، والأسرى الذين أطلق سراحهم وكان عددهم خمسين شخصا، حوصروا من طرف الغوغاء لمدة نهار وليلة، فدافعوا عن أنفسهم إلى أن أضرم المحاصرون النار في الفندق فاضطروا للخروج فالقي عليهم القبض وذبحوا جميعا في الشوارع²¹¹

وصلت أخبار الفاجعة إلى الجزائر فتسببت في تجمع الناس حول قصر الجنيينة مقر السلطة-مقر السلطة العثمانية- مطالبين برؤوس الأسرى الفرنسيين، غير أن تدخل الانكشارية أعاد الهدوء وشتت المجتمعين وأمكن تلافي اضطرابات جديدة بالمدينة.

- سوء العلاقة السياسية بين الجزائر وتونس بسبب تدخل البايات التونسيين في شؤون شرق الجزائر، حيث كانوا يشجعون على قيام الاضطرابات، وتمت المصالحة بين البلدين بإبرام معاهدة صلح عام 1628م.

- شنت أوروبا حملة على مدينة الجزائر في أوت 1601 بقيادة الاسباني "جان دوريا" (Doria) ومباركة البابا متكونة من سبعين سفينة حربية وعشرة آلاف جندي من فرنسيين وإيطاليين واسبانيين متبعة في ذلك خطة الكابتن الفرنسي "روكس"، لكنها باءت بالفشل.

²⁰⁹ ألبير دو فولكس، بحرية إيالة الجزائر،مصدر سابق، ص 391

غرامون، العلاقات بين فرنسا.....مصدر سابق، ص 19.²¹⁰

ألبير دو فولكس، بحرية إيالة الجزائر،مصدر سابق، ص 394.²¹¹

- كثرة الغزوات البحرية الجزائرية ضد السواحل الأوروبية، وخاصة في عهد الباشا الأول " أحمد باشا " (دالي أحمد) الذي قاد بنفسه حملات عام 1588 هاجم شواطئ نابولي وصقلية وكورسيكا واسبانيا .

*1-3عهد الآغاوات: 1659-1671:

تعتبر هذه الفترة من أقصر فترات الحكم العثماني في الجزائر حيث عرفت فيها البلاد اضطرابات سياسية كبيرة في نظام الحكم، من انقلابات، واغتيالات، وفساد²¹²، وتعرض الحكم التركي فيها لهزات عنيفة عجز فيها عن توفير الأمن والاستقرار الداخلي، ويمكن القول أن الجزائر منذئذ دخلت مرحلة حاسمة سيطر فيها الجند من السلطة، ويعد هذا الحدث منعرجا حاسما في تاريخ العلاقات بين الدولة العثمانية والمركز إذ كان تمردا واضحا على السلطان العثماني²¹³.

وبعدما زج الجند "بالباشا ابراهيم" في السجن أرسل السلطان "الباشا علي" ليستلم مهامه لكنه وجد وضعاً سياسياً صعباً للغاية بسبب العصيان الصريح الذي أعلنه الجند ضد أي مظهر لتبعية السلطان، فألقوا عليه القبض رفقة من رافقوه ووضعوه على متن سفينة وعاد من حيث أتى، ولما علم الصدر الأعظم "محمد كوبرلو باشا" بمجريات أحداث الجزائر أصدر أمراً بقتل الباشا على الذي أخفق في فرض هيبة السلطان، وفي الوقت ذاته أرسل فرماناً شديداً للهجة إلى الجزائريين جاء فيه: "...لن نرسل إليكم واليا بايعوا من تريدون، والسلطان ليس بحاجة إلى عبوديتكم لدينا آلاف الممالك مثل الجزائر...". لكن الآغا خليل الذي حمل لواء الثورة لم يبق في سدة الحكم سوى سنة واحدة وكانت نهايته الاغتيال عام 1660م²¹⁴، وخلفه "الآغا رمضان" الذي بادراً إلى إعادة العلاقات مع الباب العالي حيث رجعت العلاقات إلى وضعها الطبيعي إذ أرسل الباشا ابراهيم عام 1661م لكنه كان مشروطاً من طرف الجند الذين جردوه من جل الصلاحيات مما جعل النظام السياسي منذئذ يتميز بالأزدوجية من الناحية النظرية، أما في الواقع فقد كانت السلطة الفعلية بيد الآغاوات²¹⁵.

²¹² سعيدوني/ البوعبدلي، الجزائر في التاريخ العثماني.....مرجع سابق، ص 69.
²¹³ عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي(عصر الإمبراطورية) العهد التركي في تونس والجزائر، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص 338.
²¹⁴ عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة.....مرجع سابق، ص 339.
²¹⁵ نفسه، ص 331.

*نهاية نظام الأغاوات..

عرفت السنوات الأخيرة من عمر نظام الأغاوات صعوبات كبيرة في تسيير البلاد و نظام الحكم نتج عنها ظهور اضطرابات في أغلب المدن الإيالة، ففي سنة 1668م تمرد سكان مدينة الجزائر وبلاد القبائل تمكن الأهالي من قتل وذبح العديد من جنود الانكشارية ومسؤول الفرق الانكشارية الأهلية الذي علقت أشلاؤه في أماكن مختلفة من المدينة²¹⁶، وتذكر المصادر أن جهات عديدة كانت وراء هذا التمرد على نظام الأغاوات مثل طائفة رياس البحر أو الباشا ممثل السلطان في الجزائر، ولتهدة الأوضاع الداخلية لجأ "علي آغا" إلى توزيع الهدايا وتحصين رأس ماتيفو "تامنفوست" ومصب وادي الحراش وهذه الأعمال لم تمنع الانكشارية من الانقلاب ضد "علي آغا" وقتله والاستيلاء على أمواله وأعقب ذلك فوضى عارمة هاجمت من خلالها الانكشارية القسبة ونهبوا أموال جرائتهم، وعجز الديوان الوصول إلى تعيين آغا يستطيع إعادة الأمور إلى نصابها وخلال ثلاثة أيام فقط تم تعيين خمسة آغاوات دون جدوى²¹⁷ الأمر الذي سمح لطائفة الرياس التي لم تكن راضية على الوضع السياسي بالتدخل وعينوا أحدهم دايا للجزائر وهو "الحاج محمد" ووضعوا حدا لنظام الأغاوات الدموي لأنهم كانوا متعودين على قيادة الإيالة، وأن الفوضى السياسية تهدد ثرواتهم لأنهم كانوا يملكون الكثير من السفن التجارية وأساطيل الجهاد البحري، ولهم حلفاء في صفوف أغنياء الحضر، و من طائفة اليهود الذين كانوا يديرون تجارة الجزائر الخارجية.²¹⁸

ويصف معظم المؤرخين عصر الأغاوات بالدموي وذلك لكثرة عمليات الاغتيال التي يرجعون سببها أساسا إلى طبيعة تعيين الأغا، والمتمثلة في انتخاب آغا جديد من طرف الجند كل شهرين حسب الأقدمية من بين ضباط الانكشارية، وهو ما يشكل بحد ذاته خطرا على السلطة، انعكس بدوره سلبا على المجتمع، وبرغم قصر فترة نظام الأغاوات فقد تعاقب أربعة منهم على الحكم كلهم قضوا اغتيالا، حتى أن الجند لم يجدوا من يقبل بهذا المنصب الذي أصبح أقبل السبل للموت²¹⁹.

²¹⁶ جون وولف، الجزائر وأوروبا 1500-1830م.....مصدر سابق، ص92.

²¹⁷ جون وولف، الجزائر وأوروبا 1500-1830م.....مصدر سابق 102.

²¹⁸ نفسه، ص108.

²¹⁹ سعيدوني/البوعبدلي، الجزائر في التاريخ العثماني.....مرجع سابق، ص71.

يمثل هذا العهد المرحلة الأخيرة من مراحل التواجد العثماني بالجزائر، ويعتبر نظام الدايات انتصارا لطائفة الرياس، كما يدل ذلك على اختيار الدايات الأربع الأولين من بين طائفة الرياس، ومن فترة 1671 إلى 1689 كان الدايات ينتخبون من طرف الرياس، ثم استرجع الأوجاق نفوذهم، فأصبح الدايا يختار من بين ضباط الانكشارية، وذلك بسبب الحملات الأوروبية على السواحل الجزائرية خلال عهد الدايات والتي ألحقت أضرارا كبيرة بالأسطول الجزائري وأضعفت مركز الرياس²²⁰.

*مميزات فترة الدايات بالجزائر: تميزت هذه الفترة التاريخية من عمر الجزائر العثمانية بالمميزات التالية :

* كان لفئة الرياس دورا بارزا في تأسيس حكم الدايات الذين عملوا

على تقليص نفوذ الديوان، وأصبحت سلطته شكلية، وبدخول عهد الدايات عرفت الجزائر استقرارا

سياسيا..* تعتبر فترة الدايات من أهم الفترات التي مرت بها الجزائر، حيث دامت مدة 159

سنة و هي تعادل نصف تاريخ التواجد العثماني بالجزائر، ويمكن أن نطلق على هذه المرحلة بمرحلة

الاستقلال الحقيقي للجزائر عن الدولة العثمانية في تسيير شؤونها الداخلية والخارجية".

احتفظت الامبراطورية العثمانية لنفسها بسلطات شكلية في الجزائر تمثلت بصفة خاصة في الدعاء للسلطان

العثماني في صلاة الجمعة والاعتراف بمراسيم التعيين والتعاون في مجال الحروب، بحيث تقوم الجزائر بتقديم

المساعدة العسكرية للبحرية التركية في حالة تعرض تركيا للاعتداء خارجي (كما حصل في معركة نافارين سنة 1827

)²²¹ و كذا في تقديم دايات الجزائر لهدايا أثناء المناسبات الدينية والسياسية وبالتالي القاسم المشترك بين الدولتين

دفع بالجزائر إلى الإعلان عن ولائها الروحي والتبعية الاسمية للدولة العثمانية وتحالفها معها كدولة²²².

محاولات الدولة العثمانية المتكررة التدخل في شؤون الدولة الجزائرية من

أجل استرجاع سلطتها ونفوذها السابق أيام حكم البايلربايات ، والباشوات، وتأثير ذلك على مركز الدايات،

نفسه،، ص74²²⁰

²²¹ عمار بوحوش، التاريخ السياسي.....مرجع سابق، ص62

²²² نفسه، ص62

فحقّزت القوى المعادية لهم على التمرد والعصيان.. أصبح الداى ينتخب من طرف الديوان العالى (المجلس) الذى صار بمثابة برلمان فى عصرنا الحالى "²²³، والسلطان العثمانى لا يلعب أى دور فى اختيار داى الجزائرى وينحصر دوره فى إصدار مرسوم (أو فرمان) لتثبيت اختيار الديوان العالى بالجزائر، وفى حالة شغور المنصب فإن الديوان العالى هو الذى يختار خليفته بنفس الأسلوب السالف الذكر، بحلول عام 1710 دخلت الجزائر مرحلة هامة فى نظامها السياسى فأنهت عهد ثنائية الحكم برفضهم الباشا المبعوث من طرف السلطان العثمانى حيث رفض الداى على شاوش استقبال " شرقان ابراهيم باشا"، كممثل للسلطان العثمانى بالجزائر "²²⁴، وبالتالى أصبح الداى يجمع بين المنصبين (الباشا والداى)، وهى مرحلة الاستقلال الفعلى عن الدولة العثمانية . وأكثر من هذا قاوم الدايات حتى وساطة الباب العالى فى المشاكل الداخلية والخارجية للجزائر، ولم يعد بذلك السلطان العثمانى أى نفوذ فيها.

يعين الداى فى منصبه مدى الحياة، حيث أن هو المسؤول العسكرى والسياسى للبلاد، والقاضى الأعلى فى أمور الحرب والسلم والمسؤول على الضرائب وعلى التوظيف، أى له صلاحيات غير محدودة فقد كان القتل هو الوسيلة للحد من صلاحياته "²²⁵

أصبحت الدولة الجزائرية فى عهد الدايات تتمتع بحرية العمل فى المجال السياسى وبنّت جيشاً قوياً وعندها ميزانية مستقلة لا تقل أهمية عن ميزانية الدول القوية فى تلك الفترة، كما كان الداى يعقد المعاهدات (سلم وتجارة باسم الجزائر ويبعث بقناصل الجزائر إلى الدول الكبرى ويوافق على اعتماد القناصل فى الجزائر بدون مشاورة تركيا "²²⁶، ويعلن الحرب، ويستعمل العملة الخاصة بالجزائر، وهذه العوامل كلها تبين استقلالية القرار الجزائرى. إن نفوذ الجيش البحرى (الرياس) والدايات لم يخدم الأهالى ولم يستجيب لمطالبهم، حيث بقي أبناء الجزائر مهمشين ولم تكن لهم مشاركة حقيقية فى قيادة البلاد "²²⁷.

-ثانياً: الاقتصاد:

²²³ سعد الله، تاريخ الجزائر.....مرجع سابق، ص 361

²²⁴ نفسه، ص 365.

²²⁵ عمار بوحوش، التاريخ السياسى.....مرجع سابق، ص 72

²²⁶ سعيدونى/ البوعبدلى، الجزائر فى التاريخ العثمانى.....مرجع سابق، ص 77

²²⁷ سعد الله، تاريخ الجزائر.....مرجع سابق، ص 375.

تشير الدراسات التاريخية حول الفلاحة بالجزائر خلال العهد العثماني أن أغلب السكان كانوا يعيشون بالريف وأن النشاط الفلاحي هو المورد الأساسي للسكان بفضل ملائمة الظروف الطبيعية وخصوبة التربة وتنوعها وكذلك وفرة المياه الزراعية، وعموماً فإن الزراعة كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالظروف المناخية بما جعل الإنتاج الفلاحي يتوقف على كمية الأمطار المتساقطة، مما جعل الريف والفلاح الجزائري تحت رحمة الظروف الطبيعية والمناخية ومرتبطة بها ارتباطاً عضوياً²²⁸

اختصت مناطق واسعة بإنتاج نوع معين من المحاصيل الزراعية حسب ظروفها الطبيعية والمناخية، فنواحي بايليك الغرب وقسنطينة اشتهرت بإنتاج الحبوب التي كانت تمثل محصولاً رئيسياً مهدداً للاستهلاك الداخلي والتصدير الخارجي لذلك عملت السلطة العثمانية على الاستيلاء على الأراضي المنتجة للحبوب²²⁹، بينما ارتبطت زراعة الأشجار المثمرة بالمناطق الجبلية بالقبائل والمدينة والأراضي المحيطة بالمدن التاريخية كوهان، معسكر، تلمسان، مليانة، البليدة، القليعة، عنابة، قسنطينة وغيرها من المدن الداخلية.

ونظراً لارتباط هذه الفحوص بالحاجات المعيشية لسكان المدن من خضروفواكه ضرورية أصبحت هذه الأراضي مع مرور الزمن ملكاً للطائفة التركية والجماعة الكراغلة والحضر، ويضاف إلى إنتاج الخضروفاكهة إنتاج القطن بنواحي مستغانم والتبغ قرب مدينة الجزائر وعنابة والأرز بسهول الشلف ومينة²³⁰.

ورغم تنوع المحاصيل الزراعية في الجزائر العثمانية فإن الفلاحة في أواخر العهد العثماني ظلت تعاني مشاكل وصعوبات جمة عاقت تطورها بسبب الأساليب الزراعية البالية المستعملة في خدمة الأرض، الآلات البدائية المستعملة التي كانت لا تتجاوز المحراث الخشبي، والمنجل البدائي، والفرشاة البسيطة، كما أن وسائل الري وتحسين الإنتاج واستصلاح المستنقعات والسهول الساحلية حول مدينة الجزائر، وهان، عنابة، سكيكدة، بجاية، ظلت بعيدة عن تناول سكان الأرياف، ومن الأمثلة عن ذلك أن سهل متيجة الخصب كان يعتبر منطقة غير صحية بسبب انتشار حمى المستنقعات به²³¹.

²²⁸ أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص150.

²²⁹ Garrot.H. histoire générale de l'Algérie.1910.P.587.

²³⁰ Venture de paradis. Alger au xviii siècle. Edite par Mr. E. fagnon. Alger.1868. P101.

²³¹ حمدان خوجة، المرأة، مصدر سابق، ص48.

كانت الأسرة الجزائرية تشكل الوحدة الإنتاجية الأساسية، والقبيلة أو العرش يتولى عملية الحرث والحصاد

بشكل جماعي، أما الملكية الزراعية فهي تقوم على الشكل التالي:

1/ الملكية الخاصة: هي ملكية شبه إقطاعية، وتنتشر في ضواحي المدن يستغلها أصحابها مباشرة ويدفعون

ضريبة الزكاة والعشور.²³²

2/ ملكية البايليك: وهي الأراضي أكثر اتساعا وهي بحوزة وسيطرة الدولة كما هو الحال في دار السلطان. بايليك

قسنطينة، بايليك وهران.²³³

3/ الأراضي المشاعة: هي الأراضي الجماعية التي يستغلها سكان القبيلة .

4/ أراضي الوقف:

وهي الأراضي الموقوفة والمحبوسة على الأعمال الخيرية والمؤسسات الدينية وتشرف على تسييرها المصالح

الإدارية، وأحيانا تمنح لأفراد أو قبائل تستغلها مقابل أجر سنوي متفق عليه وتنتشر هذه الأراضي عادة حول

المدن²³⁴

أصبحت الأراضي الزراعية في الجزائر خلال العهد العثماني تتميز بأسلوبين من الإنتاج:

-الأول: يركز على الارتباط بالأرض وحيازتها بالنسبة للأتراك العثمانيين.

-الثاني: يعتمد على الرعي والزراعة المؤقتة لسد احتياجات الغذائية ويتمثل في العنصر الجزائري المحلي، وبسبب

كثرة الجبايات وتعدددها لجأ السكان مزاوله حرفة الرعي لأنها تساعدهم على الترحال والتنقل نحو المناطق الداخلية

وأطراف الصحراء، وتعد سهول متيجة، قسنطينة، وهران، عنابة من أهم الأراضي الزراعية الخصبة، حيث ذكر

"شالار": أن سهل متيجة على الأرجح أجمل السهول علة وجه الكرة الأرضية....²³⁵ أنها تستطيع أن تعوله أية بقعة

مماثلة على وجه الأرض، وتضم هذه السهول الخصبة مزارع كبيرة للدولة وأخرى ملكيتها فردية وخاصة تزود مدينة

الجزائر بكل ما تحتاجه من الحمضيات والعنب والحليب والزبدة....²³⁶

²³² العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون تاريخ، ص58.

²³³ العربي الزبيري، المرجع نفسه، ص59.

²³⁴ ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص45.

²³⁵ ويليام شالار، المذكرات، قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824، تعريب وتعليق وتقديم، إسماعيل العربي، ش.ون.ت. الجزائر، 1982، ص106.

²³⁶ نفسه، ص108.

والى جانب الإنتاج الزراعي اهتم الفلاح الجزائري بتربية الماشية والأبقار والتي شملت كل التراب الجزائري وخاصة

الهضاب العليا لأتساع المراعي، كما اهتم الفلاح بالهضاب العليا بتربية الخيول جنوب وهران وقسنطينة²³⁷

أما جنوب الجزائر وفي الصحراء، أهتم السكان بشكل خاص بتربية الإبل وزراعة النخيل وإنتاج التمور التي يعد

المنتوج الأساسي في المنطقة الصحراوية وفي الواحات الزراعية الغنية بالتربة الخصبة ووفرة المياه. إلى جانب بعض

المزروعات المحدودة داخل الواحات غير أن الجفاف أضر كثيرا بالمحاصيل الزراعية بالإضافة إلى الثورات المحلية ضد

الحكم العثماني²³⁸

عادة ما يستعين أصحاب المزارع والملاك بالعمال والرعاة مقابل خمس المحصول الزراعي والنظام الجبائي

المعمول به فهو يقوم على نظام الزكاة والعشر.²³⁹

*ثالثا: -الحرف في الجزائر:

1- صناعة السفن:

ساهمت الكثير من العوامل في تدهور هذه الصناعة الإستراتيجية والرئيسية في الجزائر منها: سوء أحوال

النقابات المهنية، وارتفاع الكبير في الضرائب على أصحاب المهن والحرف، إسناد منصب أمين المهنة الى كل شخص

يدفع مبالغ مالية مرتفعة بغض النظر عن كفاءته ومعرفته الفنية بالحرفة، بالإضافة إلى الاعتماد على العمال الأجانب

في الصناعات الأساسية، وبذلك لم يكتسب الجزائريون الخبرة الضرورية في بعض الصناعات المهمة كصناعة

الأسلحة، وبناء السفن، وسك النقود، وتذويب المعادن، وتشكيل الزجاج والحلي وبذلك أضحي اليهود أسياد صناعة

المجوهرات و الذهب والساعات وسك العملة وطلاء المعادن، أما الأسرى المسيحيون و المتطوعون الأوروبيون كانوا

يتولون بناء السفن وسبك المدافع وإقامة المطاحن وتحضير البارود منهم على وجه الخصوص المتعاونين المالطيين، و

الفرنسيين، والأسبان²⁴⁰

2- صناعة الأسلحة:

تتمثل في صنع البنادق وسبك المدافع وتحضير البارود التي كانت تصنع بالمدن الكبرى كقلعة بني راشد،

قسنطينة، الجزائر، ففي قسنطينة كان بها مصنعا للبارود به عشرون عاملا²⁴¹، أما بمدينة الجزائر فكان بها

²³⁷ أبو القاسم سعد الله، محاضرات.....مرجع سابق، ص152.

²³⁸ حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، تعريب وتعليق وتقديم: محمد بن عبد الكريم، دار الثقافة، الجزائر، 1962، ص75

²³⁹ نفسه، ص77.

²⁴⁰ ناصر الدين سعيدوني، الجانب الاقتصادي والاجتماعي من تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ج4، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص65.

²⁴¹ حليبي عبد القادر، مدينة الجزائر:نشأتها وتطورها قبل 1830، ط1، مطبعة البعث العربية، الجزائر، 1972، ص303

مصنعان بباب الواد ويعمل به نحو عشرون عاملا، واحد لتحضير البارود و الثاني لصنع وتشكيل القنابل، ويعرف لدى السكان بدار النحاس لأنه كان يصهر به الحديد و النحاس، كما تشير إلى ذلك الوثيقة المؤرخة سنة 1706م وكان يشرف عليه الفرنسي "دوبون" François Dupont، مع العلم أن المصنع توقف عن الإنتاج سنة 1808م بسبب قدم تجهيزاته وموت المهندس المسؤول عنه²⁴².

ومن جهة أخرى، وجدت ورشات عديدة كانت تصنع بها البنادق والأسلحة النارية في مناطق مختلفة منها على وجه الخصوص منطقة بني راشد، جرجرة، الحضنة، الزيبان، منطقة بني ميزاب، قلعة بني عباس، قرى فليتة، مدينة توقرت وبوسعادة..

وقد حافظت العائلات الأندلسية والتركية على صناعة البنادق منذ القرن السادس عشر حيث كانت تصنع البنادق الجيدة والمرصعة بالفضة، أما مراكز تحضير البارود في الأرياف فأماها منطقة جرجرة كانت قبيلة "الربولة" تختص بتحضير نوع جيد من البارود الذي استخدمه الباي محمد بن عثمان الكبير في محاصرته مدينة وهران 1792م، بالإضافة إلى القبائل الصحراوية التي كانت تحضره من ملح البارود الذي تستخرجه إلى الغرب من مدينة بسكرة.

-3-الصناعات الغذائية:

تتكون من أفران الخبز، مطاحن الدقيق، عصر الزيتون، تصبير الفواكه، ومما يلاحظ أن اغلب المطاحن المائية و الهوائية الواقعة بالمدن والمنتشرة حولها، كانت في أغلبها ملكا للبايليك وقد بلغ عددها في مدينة الجزائر وحدها 22مطحنة مائية، و18مطحنة هوائية.

أما صناعة تجفيف الفواكه وتحضير المربى وتقطير ماء الورد فقد اختصت بها العائلات العريقة من الأندلسيين و البلدية التي كانت تقطن المدن العريقة منها قسنطينة، تلمسان، القليعة، البليدة، مليانة، الجزائر. بالإضافة إلى عصر الزيت التي انتشرت في اغلب المدن وخاصة بالصومام وجرجرة وتصدر فائض إنتاجها إلى مدينة الجزائر عن طريق مينائي بجاية ودلس.

²⁴² نفسه، ص 304.

4-صناعة الصابون:

انتشرت في بعض المدن نذكر منها قلعة بني راشد، بوسعادة، تلمسان، جرجرة، وأثناء الاحتلال الفرنسي وجد الفرنسيون أربعين صانعا للصابون منها الصابون الأسود الذي كان يحضره سكان منطقة جرجرة من نفايات الزيتون ورماد شجرة الدفلة.

5- صناعة الجلود:

أهمها صناعة الأحذية، صناعة السروج، صناعة الألبسة، انتشرت في كل من قسنطينة، الجزائر، تلمسان، مازونة، قلعة بني راشد، مستغانم، وتعتبر مدينة قسنطينة أهم مركز لصناعة الجلود خلال العهد العثماني.

6- صناعة الشواشي و التطريز:

تعتبر مدينة الجزائر أهم مركز لصناعة الشواشي بالجزائر العثمانية بفضل اعتناء العائلات الأندلسية بها و توارثهم طريقة صنعها التي كانت لها مشاغل بجي باب الوادي، وإقبال التجار على تصدير كميات كبيرة إلى المشرق العربي وتركيا، ومنها صناعة: خيوط الذهب، تطريز القياطين، الحرير، الأدوات الجلدية، الأحزمة و السروج والمحافظ الصغيرة و الكبيرة.

7-صناعة الحلي والأحجار الكريمة:

اختصت بها العائلات اليهودية والأسر الأندلسية و الكراغلة في كل من تلمسان، مدينة الجزائر، قسنطينة، وقد شجعهم على مزاولتها ما كانت توفره من أرباح طائلة.

و من جهة أخرى، انتشرت الصناعة التقليدية بالمدن الجزائرية التي توارثها السكان المحليين أبا عن جد وتنوع التركيبة الاجتماعية التي تشمل عناصر متعددة من المحليين والأندلسيين واليهود والأتراك وبعض العناصر المسيحية، وظل النشاط الحرفي متواضعا بالآيالة لا تتعدى بعض الصناعات المعدنية التحويلية البسيطة التي ظلت تلبى احتياجات السكان وأسواق المدن والأرياف بالمصنوعات اليدوية كالأغطية الصوفية، والزرابي، والبرانس، والفخار والأحذية الجلدية، والأقمشة، ومهن الحدادة وصناعة الأسلحة والفضة بمناطق جرجرة"، وقد ذكر ويليام شالار: "...وأهم الصناعات الجزائرية هي صناعة الحرير والصوف والجلود المدبوغة....وهي تباع بأسعار أعلى قليلا من

مثيلاتها من المنتوجات الفرنسية والإيطالية²⁴³، اشتهر الأندلسيون بحرفة الحدادة، والنجارة، الخياطة، الخزف، الحرير، نسيج القطيفة²⁴⁴، اشتهر يهود الجزائر بالخياطة، وصك النقود، والنقش على الحلي وترصيعها والأحجار الكريمة²⁴⁵

أما العثمانيون الأتراك فقد اهتموا بصناعة السفن للضرورة الجهاد البحري ومواجهة الأخطار الخارجية للصليبية بزعامة إسبانيا المسيحية ولوفرة الغابات الضرورية لصناعة الخشب الجيد والسفن، بالإضافة إلى وفرة رؤوس الأموال الضرورية.، ومن جهة أخرى أهتم العثمانيون بالصناعات التحويلية البسيطة لكن الاهتمام بها لم يكن في المستوى المطلوب ولم تتميز بالجودة على غرار الصناعات الفرنسية والإيطالية والانجليزية لأن السلطة الحاكمة لم تكن تسير تطورات العصر وتحديات الثورة الصناعية، ونذكر منها: صناعة الرصاص، الرخام، النحاس، الفضة²⁴⁶ اشتهرت المدن في الجزائر العثمانية بتخصص الحرف والورشات الصناعية، فمدینتا تلمسان وقسنطينة اختصاصا في نسيج الزرابي والأقمشة والحرير بينما مدينة الجزائر ووهران وندرومة فقد اختصت في طرز الملابس المتنوعة والصناعات الصوفية والرخام والفضة والنحاس²⁴⁷.

ومن جهة أخرى، اختصت كل حرفة بشارع أو سوق ينتسب إليها مثل شارع مثل: سوق النحاسين، النجارين، الدباغين، الحدادين، وغيرها من الحرف المختلفة، لكل حرفة تخضع لسلطة رئيس يلقب "بالأمين" مثل: أمين الدباغين، أمين النحاسين، أمين الحدادين،... الخ، ويزاول مجموع الأمناء نشاطاتهم تحت سلطة شيخ البلد²⁴⁸. أما عن الصناعات في القرى والمناطق الداخلية والصحراوية، فهي بدورها تنوعت نظرا للتنوع البيئي الطبيعية واختلاف الغطاء النباتي والزراعي والحيواني، انتشرت بذلك الحرف اليدوية خاصة منها الصوفية والزراعية منها: العسل، الصوف، الزبدة... الخ غير أن "حمدان خوجة" يذكر: "...توجد ببني عباس ووادي بجاية وبني جنات مصانع للأسلحة النارية والبنادق المرصعة بالفضة، كما تصنع فيها البلاتين ويعرف السكان أيضا طريقة استخراج خامات الحديد ومناجم الرصاص وملح البرود....."²⁴⁹.

²⁴³ ويليام شالار، المذكرات، قنصل أمريكا في الجزائر..... مصدر سابق، ص 93.

²⁴⁴ ناصر الدين سعيدوني، دراسات وابحاث في تاريخ الجزائر-العهد العثماني-، ص 140.

²⁴⁵ نفسه، ص 142.

²⁴⁶ العربي الزبيري، التجارة الخارجية..... مرجع سابق، ص 62.

²⁴⁷ نفسه، ص 63.

²⁴⁸ العربي الزبيري، التجارة الخارجية..... مرجع سابق، المرجع نفسه، ص 65.

²⁴⁹ عثمان بن عثمان خوجة، المرأة..... مصدر سابق، ص 67.

وبناء على ذلك، فإن الصناعات المعدنية لم تشهد تطورا ملموسا وظلت متخلفة تخلف القطاع الزراعي والصناعي والإداري باستثناء استخراج الملح من سباح وهران، ومعالجة الجير المستخرج من المحاجر الواقعة قرب المدن، أو بناء السفن الخشبية بميناء الجزائر أو تحضير البارود وسبك المدافع بمدينة قسنطينة و الجزائر²⁵⁰.

وما يمكننا استخلاصه من طبيعة الصناعات في الجزائر العثمانية ما يلي:

-تقوم الصناعات على تلبية حاجيات السكان الضرورية للعيش، حافظت على طابعها التقليدي والمحلي جيل

بعد جيل، وتجد رواجاً لدى السكان المحليين.

-خضعت صناعة المدن الكمالية لتحكم ومراقبة النقابات المهنية بعد أن تطورت هذه النقابات المهنية حسب

تقاليد متوارثة مما أكسبها شكل مجموعات اقتصادية مستقلة بعيدة عن أي صبغة دينية أو سياسية²⁵¹.

-اعتمدت الصناعة والحرف في الجزائر العثمانية على المواد الأولية المتوفرة في البلاد خاصة منها الصوف،

الجلد، الخشب، الملح.

-اضطرت الصناعات إلى رفع أسعار بضائعها لتغطية الالتزامات المالية والضرائب الثقيلة المفروضة عليها، وبذلك

انخفضت قيمة المنتجات الزراعية بالنسبة للمواد المصنعة، وبالتالي ارتفاع مستوى معيشة الحضر على حساب الفلاحين.

-أضرت منافسة المصنوعات المستوردة بالمصنوعات المحلية، مما ساعد على غلاء أسعار المواد والمصنوعات

الجزائرية، وعدم انتهاز الحكومة سياسة الحماية الجمركية وهذا بسبب سلوك بعض الحكام العثمانيين الذين كانوا يشجعون الاستيراد الخارجي²⁵².

-لقد كانت نتيجة هذه المنافسة الأجنبية وفتح باب الاستيراد الخارجي والإكثار من الضرائب وتحكم النقابات

المهنية في الصناع أهم العوامل التي حالت دون قيام صناعات حقيقية في الجزائر العثمانية حتى في مجال المنسوجات والمواد الغذائية وبناء السفن رغم توفر المواد الأولية والخبرة الضرورية لهذه المصنوعات.

²⁵⁰ نفسه، ص 69.

²⁵¹ Maury. Du commerce de l'Algérie avec l'Afrique centrale et les états barbaresques. Paris. Guyot. 1844. P.21.

²⁵² Maury. Du commerce de l'AlgérieOp.cit.p23.

*رابعاً: -التجارة:

تعتبر التجارة المحرك الرئيسي لاقتصاد ولحركة التبادل التجاري إلا أنها لم تعط لها الأهمية اللازمة من طرف الحكام العثمانيين بسبب الاهتمام بالجهاد البحري والغنائم البحرية على حساب التجارة وتطويرها التي كانت تدر أموالاً طائلة على رياس البحر والطبقة الحاكمة، ويمكن تقسيم الجارة في الجزائر العثمانية إلى نوعين أساسيين:

1-التجارة الداخلية:

بفضل تنوع المحاصيل الزراعية والحيوانية والإنتاج الزراعي في الريف والحرفي بالحواضر الكبرى، ساعدت هذه الحركية التجارية على تنمية التجارة الداخلية، ومن جهة أخرى ساعدت السلطة العثمانية هذه الحركية التجارية بغية فرض سلطتها وهيمنتها على سكان الريف والقبائل وعلى جميع الطرف البرية التي تمر عبرها القوافل التجارية القادمة من المناطق المتاخمة للجبال والصحراء والمتجهة نحو المغرب الأقصى وتونس وبلاد السودان²⁵³ تتم التجارة الداخلية أساساً داخل الأسواق الأسبوعية مثل سوق السبت، سوق الأربعاء وسوق الاثنين والأسواق الشهرية والسنوية داخل البوادي بين القبائل والعروش ويتمركز أساساً في المدن الكبرى كمدينة الجزائر وقسنطينة وتلمسان ووهران ومازونة ومعسكر وورقلة، وفي الأسواق تلتقي جميع البضائع المحلية القادمة من مختلف مناطق الجزائر العثمانية، من قبائل أولاد سيدي الشيخ، قبائل أولاد نايل، النمامشة، وغيرها وتلتقي المنتوجات السهلية كالحبوب والزيوت والتين والفواكه المتنوعة، والبضائع الجنوبية الصحراوية خاصة منها التمور والماشية والصوف وريش النعام.²⁵⁴

وما يمكننا استخلاصه، أن الأسواق الداخلية المحلية بالجزائر العثمانية التي لعبت دوراً رئيسياً في التبادل التجاري أصبحت مع مرور الأيام أماكن لفض النزاعات بين القبائل المتصارعة على الأراضي الزراعية والمراعي والنفوذ الاقتصادي، ومن جهة أخرى إلى أماكن لنقل الأخبار.

2- التجارة الخارجية:

تعتبر مصدراً مهماً في تنمية موارد الخزينة المحلية لأنه نشاط يتخطى الحدود السياسية نحو العالم الخارجي، وساعدت على ذلك عدة عوامل رئيسية منها الموقع الجغرافي للجزائر، الموانئ الساحلية، تنوع العلاقات الخارجية

²⁵³ ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي.....مرجع سابق، ص38.

²⁵⁴ صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830م، دار هومة، الجزائر، 2012، ص. 339.

بفضل قوة الأسطول البحري العسكري، وتنوع التركيبة السكانية للجزائر العثمانية، ورغم هذه العوامل المشجعة على تطوير التجارة الخارجية إلا أنها ظلت متواضعة خضعت منذ بداية القرن التاسع عشر إلى الاحتكارات الخارجية وخاصة منها الفرنسية والمهدوية (شركة بوشناق- بكري) التي تحكممت في تجارة بايليك الشرق خاصة منها الحبوب وأصبحت تزود فرنسا بالحبوب خلال فترة حروب نابليون الأوروبية، ويؤكد حمدان خوجة في مذكراته هيمنة العائلات اليهودية على تجارة الجزائر الخارجية بقوله: ".....لقد سمعت أحد البولكباشيين وهو قائد الحامية التركية بمدينة عنابة: إن كمية القمح التي صدرت إلى أوروبا في تلك السنة كانت تقدر بست وتسعين شحنة(مركبا)، وفي نفس السنة تم تصدير مائتين وأربعين ألف صاع قمحا من ميناء وهران"²⁵⁵ وقد نتج عن احتكار تجارة الحبوب ارتفاع أسعارها وانتشار المجاعات مع نهاية القرن الثامن عشر، وما كان هدف هذه الاحتكارات للعائلات المتحكمة في الاقتصاد إلا جمع المزيد من الأموال لحماية مصالحها واستثمار المزيد منها في مدن ليفورنا ومرسيليا وباريس.²⁵⁶

أما الشركات الفرنسية فقد تمثلت في الوكالة الإفريقية الفرنسية ثم الشركة الإفريقية التي كان مركزها مدينة مرسيليا²⁵⁷

ومن جهة أخرى، أشارت العديد من الدراسات شح المنتوجات والسلع الخارجية بالأسواق والحواضر الكبرى خاصة القادمة من محيط الجزائر الخارجي من السلع القادمة من إفريقيا، المغرب، تونس، طرابلس الغرب ورغم تواصلها التاريخي إلا أنها ظلت ضعيفة بسبب عدم الاهتمام بها وتطويرها من قبل الحكام العثمانيين المتعاقبين على الحكم والعلاقة المتوترة بين الجزائر والدول الأوروبية في كثير من الأحيان، ومن جهة ثانية لم تكن الجزائر تملك أسطولا تجاريا حديثا تنقل بها مختلف السلع، ولما كانت فرنسا هي المتعامل الرئيسي مع الجزائر تجاريا فبذلك كانت المسيطرة على حركة النقل بين الجزائر والعالم الخارجي²⁵⁸.

خامسا- النظام الضريبي:

²⁵⁵ حمدان بن عثمان خوجة، المذكرات.....مصدر سابق، ص 160.

²⁵⁶ العربي الزبيري، التجارة الخارجية.....مرجع سابق، ص 210.

²⁵⁷ حليبي عبد القادر، مدينة الجزائر:نشأتها وتطورها.....مرجع سابق، ص 303.

²⁵⁸ صالح عباد، الجزائر خلالمرجع سابق، ص 343.

أصبحت الضرائب منذ أواسط القرن الثامن عشر تمثل المصدر الرئيسي لدخل الدولة بعد أن تناقصت غنائم الجهاد البحري وتقلصت ثروات سكان المدن، وهي في تنوعها واختلاف تسمياتها كانت ترتبط بوضعية الأرض و نوعيتها وكيفية استغلالها وطبيعة علاقة سكانها بالنظام.

ارتبط هذا النظام بالملكيات الزراعية وتحكم إلى حد كبير في طريقة استغلال الأرض، وفي تطور النشاط الزراعي والحرفي والتجاري، فقد خضعت الملكيات لفريضة العشور عن المحاصيل والزكاة عن المواشي، فالعشور تحدد قيمته حسب عدد الجابديات أو المشيات، إذ يفرض مبدئيا على كل جابدة أو مشية صاع من القمح وآخر من الشعير²⁵⁹، مع إضافة حمولتين من التبن ومقدار من الزبدة في بعض النواحي، وهذا ما مكن الخزينة كل ولاية من الحصول على مداخل معتبرة من الحبوب، فمقاطعة التيطري مثلا كان يوظف عليها من العشور في أوائل القرن التاسع عشر 20762 صاعا من القمح و ملالها من الشعير²⁶⁰

و من جهة أخرى، تميزت أراضي البايليك بنظام خاص إذ كان يؤخذ عليها كراء سنوي محدد يعرف بالحكور مع بعض المطالب العينية إذا أجرت الأرض، ويوظف عليها العشور ورسوم سنوية زهيدة إذا أعطيت أو منحت كإقطاعات لذوي النفوذ والمكانة مقابل الخدمات وعوض الجريات.²⁶¹

وقد ظلت الضرائب الزراعية موجهة أساسا لسد حاجة الجهاز الإداري على مستوى المقاطعات والباياليكات، كما أن هذه الضرائب لم تكن قارة ولا موحدة أو محددة، وهذا ما جعلها غير عادلة في تقدير كميتها وفي كيفية استخلاصها، فالإجراءات الجبائية المتعلقة بالضرائب الزراعية ظلت في أساسها تدفع لاعتبارات خاصة، فهي تقوم على المعاملة المفضلة وعلى منح الامتيازات للمتعاملين مع السلطة من مرابطين وشيوخ عشائر وأفراد قبائل المخزن المكلفين بمراقبة السكان الخاضعين في الوقت الذي تزعم فيه القبائل الخاضعة (الرعية) وجماعات الفلاحين (الخماسون) على تقديم الضرائب المختلفة القيام بأعمال السخرة دون نيل ما يترتب عن ذلك من حقوق أو إعفاءات جبائية فضلا عن هذا فان الضرائب الزراعية ظلت تتصف بغياب التنظيم المحكم مع انعدام الديناميكية والمرونة.²⁶²

1*-عوائد بيت المال:

²⁵⁹ m.morineau. L'ankylose de l'économie méditerranéenne au XVIIIe et au début du XIXe siècle. In actes de journées d'étude. Nice. 1972.p95.

²⁶⁰ op. cit. p98.

²⁶¹ E. Vayssettes. Histoire des derniers Beys de Constantine. In. R.A. T.3.1858.P116.

²⁶² ناصر الدين سعيدوني، الجانب الاقتصادي والاجتماعي من تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ج4، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص62.

التي تتألف من مردود الأوقاف وما يؤول إلى الخزينة العامة من تركات والودائع والأموال التي تبقى شاغرة وليس لها وريث شرعي.

2- *رسوم النقابات المهنية والدكاكين التجارية: يتكفل شيخ البلد "قائد الدار" بجمعها من أمناء النقابات المهنية

المختلفة الموجودة بالمدن الكبرى، وقد قدرت عام 1822م بما يعادل 3000 دولار إسباني.

3- *رسوم الطوائف العرقية والأقليات الدينية:

كان اليهود يدفعون لخزينة الدولة مبالغ مالية، يتكفل كبيرهم "المقدم" بتقديمها إلى الخزانة أو شيخ البلد، وقد بلغت

في مدينة الجزائر ما بين 500 و1000 بدقة شيك أسبوعيا، وفي مدينة قسنطينة كان قائد الدار يتسلم من اليهود

عشية الاحتلال 9000 فرنك.

أما الأندلسيون الذين استقروا في المدن الساحلية فكانوا يمدون خزينة الدولة بمبالغ مالية ضخمة قدرت أثناء

القرن السادس عشر: ب300 دوكة بمدينة شرشال، و800 زياتي ذهب، و600 قيسة من الحبوب، و20 رطل زبدة،

و70 بغلا للخدمة، و3 خيول للركوب في مدينة مستغانم²⁶³.

4- *رسوم المرسى وحقوق الديوانة:

حددت رسوم دخول المرسى بالنسبة للسفن الجزائرية والعثمانية بعشرين قرشا عن كل سفينة تدخل موانئ

الجزائر، أما بالنسبة للدول المسالمة والمهادنة كان يتوجب عليها دفع أربعين قرشا مقابل بلوغها الموانئ الجزائرية،

يضاف إلى هذه الرسوم إتاوات إضافية مثل حق استرشاد بالفنار المقدر بأثني عشر فرنكا، ومنحة المترجمين، والرياس

المصاحبين للسفن وهي 10 سكات للرياس و3 سكات محبوب للمترجمين عن كل سفينة.

5- *فوائد الاحتكار وحقوق إسناد المناصب:

كان الداوي والبايات وبعض الموظفين الكبار يتقاضون مقابل إسناد المناصب أو تجديد الإبقاء بها مبالغ نقدية يأخذون

منها نسبة معينة مقابل توسطهم ويعود الجزء الأكبر منها لخزينة الدولة، وهذا ما أدخل الاضطراب والفوضى في

الجهاز الإداري والمالي للدولة الجزائرية.

5- *المدخل الاستثنائية:

²⁶³ العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون تاريخ، ص64.

وهي التي تفرض على بعض المهام والنشاطات الاقتصادية التي يحظرها الشرع ولا تقرها العادات المتعارف عليها، وتلجأ إليها الدولة تحت وطأة الحاجة وعند الضرورة مثل رسوم الحانات والخمارات المنتشرة بمدينة الجزائر، وضريبة النساء المنحرفات التي يتولى المزوار استخلاصها وهي تبلغ في مدينة الجزائر وحدها ما يناهز 24000 فرنك سنوياً، وكذلك ما يحصل عليه الدولة من عمليات العزل والمصادرة والتغريم التي يتعرض لها بعض الأغنياء من الحضرو اليهود وكثير من موظفي الدولة ومستخدميها.

وقد تكررت عمليات المصادرة والتغريم طيلة العهد العثماني وأصبحت شائعة في السنوات الأخيرة من العهد العثماني بعد شح مصادر الدخل الأخرى.

سادساً: -*التجارة البينية المغربية:

-*أولاً: مع المملكة المغربية:

تحكمت مجموعة عوامل سياسية واجتماعية وتاريخية سلباً وإيجاباً، في طبيعة وحجم العلاقة الاقتصادية المغربية ونذكر من تلك العوامل:

- الجوار الجغرافي وغياب حواجز طبيعية بين البلدين مثل ما هو موجود مع أوروبا، جعل من الحتمي أن ينشأ تبادل اقتصادي، خاصة بالنسبة للمناطق القريبة المتجاورة مثل الغرب الجزائري والشرق المغربي.

- الوحدة التاريخية بين القطرين في الفترات السابقة على العهد العثماني في عهد المرابطين ثم الموحدين، خلقت نوعاً من الترابط الاجتماعي والاقتصادي بين رعايا القطرين.

- التفاوت الموجود في كثير من المنتجات، ففي الوقت الذي كان المغرب يتوفر على المنتجات الزراعية مثل السكر والزيت ومثل الجلود، وبعض الصناعات الحرفية التي وفرها المهاجرون الأندلسيون البارعون، فقد كانت الجزائر التي أصبحت عاصمتها مثل ما وصف "مارمول" أغنى مدينة في إفريقيا بسبب الغزو البحري²⁶⁴، غنية

²⁶⁴ مارمول كاراباخ، إفريقيا، ج 1، مكتبة المعارف الجديدة، 1984، ص 65.

بالأموال وبالأشياء، وكذلك بالسلع التي يتم غنمها مثل القمح والذهب والفضة والنحاس ومثل الأسلحة والبارود والسفن²⁶⁵.

رغم قلة المصادر في هذا الجانب، فهناك ما يؤكد على وجود ارتباط في هذا الجانب، حيث كان هناك تبادل لكثير من المنتجات الزراعية، وكذلك انتقال دائم للعاملين في الزراعة، والمتخصصين في البذر والحراث وفي الحصاد، بين ضفتي الحدود الرابطة بين البلدين²⁶⁶، وهناك أيضا ما يدل على وجود إمكانية تملك مواطني كل قطر للأراضي الفلاحية المنتجة القطر والآخر وقد ساهم اختصاص كل بلد ببعض المنتجات بوجود تبادل حتمي بين البلدين، فقد كان المغرب يحتكر زراعة السكر والشجرة المنتجة لصبغ النيلة، والذين يكثر عليهما الطلب في الجزائر، بينما كانت الجزائر تحكر إنتاج العنب، وتنتج أيضا التمور والشعير والقمح، وتساوى البلدين في كثير من المنتجات الزراعية والحيوانية.

أما الحرف فكانت متوفرة ومتطابقة في البلدين إلى حد كبير، مما سهل إمكانية انتقال الصناعيين والحرفيين بين البلدين للعمل في نفس الظروف والخبرة، والفرق الوحيد ربما حدث مع الفروق التي جاءت عن طريق السكان العثمانيين، أو عن طريق الأجانب. ومن أشهر الصناعات المتوفرة بالقطرين في تلك الفترة، نجد الصناعات الصوفية، والكتان²⁶⁷.

ومن أشهر الصناعات المتوفرة بالقطرين في تلك الفترة، نجد الصناعات الصوفية، والكتان والأسلحة والبارود والألبسة الحريرية والأحذية الجلدية والشاشيات، التي دخلت مع النازحين الأندلسيين، وفي المغرب كانت السيوف والجلود، والكثير من الألبسة المزخرفة والأحذية والزخرفة وصناعة الأصبغة، والزرايب والأواني النحاسية²⁶⁸. التبادل التجاري.

²⁶⁵ نفسه، ص 66.

²⁶⁶ حفيظة بوتوقوماس، الحياة الاجتماعية في تونس خلال العهد الحسيني.....مرجع سابق، ص 56.

²⁶⁷ العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرقمرجع سابق، ص 60.

²⁶⁸ مرجع سابق العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرقمرجع سابق، ص 66.

*-ثانيا: مع تونس وليبيا.

نظرا لكون الأقطار الثلاث، الجزائر وتونس وليبيا كانوا تحت الحكم العثماني، وبفضل وجود حدود مشتركة وتطلع باشاوات الجزائر للاستفادة من خيرات تونس، وفرض الجباية عليها

كانت في أفضل حال، بفضل حالة الاستقرار والرخاء التي تعم الشرق الجزائري، وتوفر عدة أسواق مزدهرة كبيرة، وكذلك بفضل الحركة الاقتصادية في تونس، التي تمثل حلقة وصل مع المشرق ومع أوروبا، خاصة في حالات الحصار الطويلة التي كانت تتعرض لها مدينة الجزائر²⁶⁹

1- أبرز أسواق التبادل التجاري بين الجزائر وتونس:

قسطنطينة عاصمة بايليك الشرق وأكبر مدنه، فقد كانت أكبر الأسواق في الشرق الجزائري، يؤمها التجار من مختلف نواحي الشرق ومن تونس، يجلبون إليها منتجاتهم ويحملون منها المصنوعات والسلع المتوفرة لتسويقها في مناطقهم، وقد كانت تنطلق من قسطنطينة كل شهر قافلة من ثلاثمائة بغل نحو تونس تحمل إليها المصنوعات الصوفية والجلدية والمنتجات الزراعية وتستورد منها السلع المحلية والأوربية²⁷⁰، وتذكر المصادر أن تجار قسطنطينة كانوا يستعينون من أجل هذا الرحلات المنتظمة باليهود لتغيير سلعهم وتحديد أسعارها - مدينة الوادي، عاصمة منطقة سوف، كانت تعتبر سوق مهم وغني، يقصده التجار من مختلف الواحات، وأكثر من ثلاثمائة حانوت، وأهم المنتجات: التمور والتبغ، وكانت الوادي تمثل همزة وصل بين كثير من واحات الشرق الجزائري وبين المدن التونسية - توقرت: عاصمة إقليم وادي ريغ، كانت مدينة غنية وثرية بفضل توفرها على سوق كبير تؤمه القوافل المتوجهة إلى بلاد الجريد، وكان تجار توقرت يحملون إلى تونس التمور والأقمشة الصوفية ويستوردون منها المنتجات الأوربية مثل العطور - ورقلة، أكبر مدن الواحات الشرقية²⁷¹، وأحد أغنى أسواق الشرق الجزائري - غدامس: التي كانت محجا لتجار الجنوب الشرقي الجزائري، لأنها كانت ملتقى قوافل تونس وطرابلس والسودان.

²⁶⁹ حفيظة بوتوقوماس، الحياة الاجتماعيةمرجع سابق، ص 21.

²⁷⁰ Mohamed gaid. Op. cit. P166.

²⁷¹ يحي بوعزيز، موضوعات وقضايامرجع سابق، ص 30.

2- أهم المواد التجارية المتبادلة مع تونس:

كانت مدينة قسنطينة تصدر إلى أسواق تونس: الصوف والجلود المدبوعة، والتمور الممتازة، والشواشي، وريش النعام، بينما كانت تستورد المصنوعات الأوروبية، مثل: العطور والتوابل والقهوة والأقمشة القطنية والحريية²⁷²، بينما كانت الوادي تصدر إلى نفطة: التمور والتبغ، وتستورد المواد العطرية والأقمشة الحريية والأسلحة والكبريت. وكانت توقرت تصدر إلى نفطة وغدامس: الأقمشة الصوفية والتمور والمظلات المصنوعة من الجريد، والحبوب والزيوت، وتستورد منهما: الأقمشة القطنية والعطريات الأوروبية، والتبر والعبيد وريش النعام والبخور السوداني، أما ورقلة فكانت تصدر إلى غدامس: الأقمشة الحريية والقطنية والتمور والحبوب والأسلحة، وتستورد منها التبر والعبيد والعاج وابخور السوداني²⁷³.

*ثالثا: مع طرابلس الغرب:

خلال العهد العثماني ربطت الجزائر بطرابلس الغرب علاقات اقتصادية الى جانب العلاقات السياسية من خلال التبادل التجاري بين القطرين، ونظرا لحاجات سكان الجنوب الشرقي الجزائري وسكان المدن الليبية للتواصل وتبادل المنافع، وتحصيل السلع الضرورية ورغم وجود تبادل تجاري على مستوى البحر، يقوم على تبادل السلع عبر الموانئ، والذي كان يسيطر عليه اليهود والأوربيين، فقد كان هناك ما عرف بتجارة القوافل، التي تربط بين حواضر الشرق الجزائري، وبين الحواضر الليبية.

1-3- أهم الأسواق التجارية بين الجزائر وطرابلس الغرب:

كما يظهر من شرح الطرق التجارية بين القطرين، فإن أهم المراكز التجارية والأسواق المؤثرة في تجارة البلدين، كانت من الجانب الجزائري كل من: ورقلة ووادي سوف وتقرت وعين صالح وتوات²⁷⁴، ومن الجانب الليبي، كل من: مدينة غات، ومرزوق في إقليم فزان، كان مثلت مدينة غدامس التونسية ملتقى مشتركا مهما في تصريف السلع وتلاقي تجار القطرين، ومن بين أهم السلع المتبادلة بين التجار الجزائريين وطرابلس الغرب نذكر: 1

272 شعباني نور الدين، علاقات ممالك.....مرجع سابق، ص 255.

273 يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا.....مرجع سابق، ص 39.

274 شعباني نور الدين، علاقات ممالك.....مرجع سابق، ص 266.

- السلع محلية الإنتاج بالقطرين ، حيث كان الجزائريون يصدرون إلى أسواق طرابلس: القمح والشعير خاصة في فترات الجفاف بليبيا²⁷⁵ ، بالإضافة للشمع والزيت والصوف والأغنام والجمال والتبغ والتمور والأقمشة والمواد العطرية، وكان الجزء الآخر قائم على تصدير السلع القادمة من مناطق أخرى²⁷⁶ ، حيث تمثل الأسواق المحلية فيها مجرد مراكز عبور، فكان الجزائريون يصدرون إلى ليبيا المنتجات الأوروبية، وفي المقابل كان تجار ليبيا، يمثلون همزة الوصل بين بلاد السودان وأسواق الجزائر، فكانوا يحملون إليها التبر والعبيد والملح والنحاس والقماش.

*- التجارة الخارجية مع البلدان الخارجية: كانت الجزائر تصدر إلى البلدان كميات كبيرة من الحبوب والصوف والجلود والشمع و العسل والتمر والزيت و التين اليابس وريش النعام و البقول و الحمضيات والخضر والفواكه، وقدرت ما كانت تصدره الجزائر أواخر العهد العثماني: 20.000 قنطار من الصوف، 10.000 قنطار من الجلود، 600 قنطار من الشمع.

وبالمقابل تستورد الجزائر من الدول الأوروبية:

1- من فرنسا: الأقمشة الحريرية، والكتانية، والقطنية، والعقاقير، والأدوات والآلات الحديدية، والمجوهرات والروائح وأدوات الزينة.

2- من إنجلترا: يستورد السلاح، العتاد، الآلات الحديدية، والمزاد الكيماوية، بالإضافة إلها

لأقمشة ومنتجات المستعمرات كالسكر والقهوة.

3- من اسبانيا: *كان يجلب منها خاصة الرصاص والكبريت، الأغطية، المعادن الثمينة، أما مدينة ليفورن و جنوة، ونابولي، فكانت تأتي عن طريقها المنتجات المدارية، والأقمشة ومختلف الاداوات الحديدية.

وبناء على ما سبق، نسجل أن الاقتصاد الجزائري خلال العهد العثماني عرف ازدهرا ملحوظا في القرنين 16م، و17م، وتقهقرا ملموسا ابتداءا من القرن 18م انتهى إلى حالة الضعف و الجمود أدت إلى انهيار النظام السياسي للدولة الجزائرية في أول صدام حقيقي لها مع قوة أوروبية سنة 1830م.

275 يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا.....مرجع سابق، ص 41

276 شعباني نور الدين، علاقات ممالك.....مرجع سابق، ص 260.

1- العملة المستعملة في الجزائر أواخر القرن السابع عشر:

إن النقود التي يستعملها التجار الجزائريون في أغلبها اجنبية كما هو الحال بالنسبة للسلطاني الذهبي التركي الذي يساوي "الدوكا" واحدة. ومثقال فلس الذي يعادل عشرين "فولس" هولنديا، و"بينول وريال" اسبانيا، والأوقية "الفرنسية" و"الدوكا" المجرية. البربر والعرب لا يولون أهمية للتجارة ولا يقبلون من النقود سوى الآوقيات، والقروش، والريالات الاسبانية. تنقسم العملة المضروبة في البلد إلى ثلاثة أصناف، وكانت ستة منها في السابق أسير واحد، وهي عملة فضية صغيرة مربعة نقشت عليها أحرف عربية²⁷⁷.

عملة البلد العربية: منها تأتي الروبية التي تساوي 35 أسير، والمديان التي تعادل 50 أسير، والديان أو الزياني التي تساوي 100 أسير، وهي مكتوبة ببعض الحروف العربية، وتستعمل كذلك في مملكتي "كوكو" و"بني عباس" رغم توفرهما على عمليتهما الخاصة بهما، مع العلم أن الزياني هي العملة القديمة للملوك تلمسان، هو الوحيد الذي يحق له ضرب هذا النوع من النقود. ومن جهة أخرى، يقوم يهود على شؤون العملة بالجزائر، ويدفعون مقابل ذلك مبلغا ماليا إلى الباشا²⁷⁸.

2- العملة المتداولة في الجزائر أوائل القرن 19م. تشير الدراسات الاجتماعية والاقتصادية أن هناك عدد كبير من مزوري العملة المحلية في جبال القبائل وهم يصنعون قطعاً مزورة من قيمة 5 فرنك ب إتقان لم يرق إليه حتى مزورو أوروبا.

باتقان وفي مدينة الجزائر عاصمة المملكة التي تحمل نفس الاسم يساوي الثمن 29 أسير، أما النقود الذهبية المصنوعة تعرف بالسكة أو السلطاني ونصف السكة وربعها، كما تصنع أيضا نقود فضية.

وعندما تولى الداوي حسين الحكم أمر ببناء دار السكة داخل القصبة سنة 1235هـ/1819م داخل القصبة وأمر أمين السكة أن ينتقل إليها من الدار القديمة وأن يعين نائبا عنه من أجل الميزان ومراقبة عيار مصنع أهل البلد. فانتقل إلى الدار الجديدة وأبتدأوا بصنع المعادن على خلاف الطريقة الجديدة، وأمر بصنع قطع سلطاني الذهب عوض الدينار، وميزان السلطان عشر نواية، وصنع نصف السلطاني وربع السلطاني، أما قطع "الدورو

²⁷⁷ يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا.....مرجع سابق، ص46.

²⁷⁸ ShawDr. .L.algerie un siècle avant occupation française z au 18emesiècle .témoignage .Carthage .Tunis.1968.p119.

الفضة فقد أمر بصنع أنصاف لها، وذلك عوضاً عن الدراهم الصغار القديمة، و أمر بأن يدفع من السكة الجديدة الرواتب لكافة العسكر لأصحاب العملات بقيت متداولة حتى أوائل عهد الاحتلال.²⁷⁹.....أحمد شريف الزهار، مذكرات الحاج احمد الزهار نقيب الأشراف، نشر احمد توفيق المدني، الجزائر، 1974، ص 147.

3-ثالثاً: الأوقاف

الوقف أو الوقوف لغة هو خلاف الجلوس، وقف بالمكان (بفتح القاف) وقف (بسكون القاف) ووقوف، فهو واقف، والجمع وقف (بضم الواو، سكون القاف)، ويقال: وقفت دابة تقف وقوفاً، وقفها أنا واقفاً، ووقف الدابة جعلها تقف.²⁸⁰

والوقف اصطلاحاً هو قطع التصرف في رقبة العين التي يدوم الانتفاع بها و صرف المنفعة لجهة الغير²⁸¹ و الوقف في الشرع حبس الأصل وتسبيل المنفعة، أي حبس المال وصرف منافعه في سبيل الله، ولهذا التعريف أصل في الحديث الشريف، فعين سفيان بن عبد الله بن عمر بن حفص العمري عن نافع عن عبد الله بن عمر أن عمر بن خطاب ملك مائة سهم من خير، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إني أصبت مالا لم أصب مثله قط، وقد أردت أن أتقرب به إلى الله عز وجل فقال: "حبس الأصل وسبل الثمرة"²⁸². و من هنا يرى راشد القحطاني أن الوقف وجه من وجوه البر والخير التي أرادها الواقف وأراد لها الاستمرار في حياته و بعد مماته ابتغاء مرضاة الله مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث رواه أبو هريرة: "إذا مات لبن آدم أنقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو عمل ينتفع به أو ولد صالح يدعو له"، ويعد الوقف من أهم صورها²⁸³ و يعد-الوقف- من أهم المظاهر التي جاءت بها الحضارة الإسلامية، فهو الذي يعبر عن الخير المستشري في الإنسان المسلم ويبرز مدى الإحساس الإنساني اتجاه الآخرين، وتعددت إسهامات الوقف في الحياة الاجتماعية لمجتمع المغرب الإسلامي، حيث مست مختلف جوانب الحياة مثل إسعاف الفقراء والمحتاجين، ورعاية المسنين والاعتناء

²⁷⁹ أحمد شريف الزهار، مذكرات الحاج احمد الزهار نقيب الأشراف، نشر احمد توفيق المدني، الجزائر، 1974، ص 147.

²⁸⁰ ابن منظور، لسان العرب، المجلد 15، نسق وعلق عليه، ووضع فهارسه، علي المشيري، ط1، دار أحياء التراث العربي، بيروت، 1988، ص 373.

²⁸¹ أبو زهرة محمد، محاضرات في الوقف، دار الفكر العربي، القاهرة، 1972، ص 7.

²⁸² مغلي محمد البشير الهاشمي، التكوين الاقتصادي لنظام الوقف الجزائري ودوره المقاوم للاحتلال الفرنسي، مجلة المصادر، العدد: 6، ص 157.

²⁸³ القحطاني راشد سعد راشد، أوقاف السلطان الأشراف شعبان على الحرمين، الرياض، 1994، ص 20.

بالمرضى، وبذلك أصبح نظام الوقف مصدرا لقوة الدولة، وشريكا لها في خدمة المجتمع ورعاية شؤونه، حيث خفف على الدولة الكثير من الأعباء، وجعل تحت تصرفها موارد ضخمة أعانتها على الاضطلاع بأعبائها²⁸⁴.

وإلى جانب دفع الفقر والحاجة عند المسلمين سواء في الظروف العادية أو الاستثنائية، فقد قدم الوقف خدمات اجتماعية جلية، ونخص بالذكر توفير السكن للمحتاجين "فقد كانت هناك عدد من الأسر الفقيرة تجد لدى مؤسسة الأحباس التفاتا وعطفا، فتحصل على السكنى بالمجان أو بالكراء الرمزي"²⁸⁵، بل أن الوقف والواقفين لم ينسوا حتى الأموات من الضعفاء والغرباء، وخصصوا لهم أوقافا تعمل على مواراتهم التراب²⁸⁶.

إن الأوقاف اعتنت بكل مصالح المسلمين، ولم يترك كبيرة ولا صغيرة إلا وأدرجها ضمن اهتماماتها، وبذلك كانت سنداً حقيقياً للمجتمع والراعية لمصلحه، وكذلك مصدر قوة لكل من المجتمع والدولة²⁸⁷.

بوظائفها الأساسية في حفظ الأمن والقيام بواجب الدفاع، هذا فضلا عن أن احترام الدولة لنظام الوقف، ومشاركة رموزها وممثلها في دعمه والمحافظة عليه، كان من شأنه أن يقوي من شرعية سلطة الدولة نفسها، ويوثق علاقاتها بالمجتمع وكانت مؤسسة الأوقاف مصدر قوة مزدوجة لكل من المجتمع والدولة، "فأما كونه مصدرا لقوة المجتمع بما وفره من مؤسسات وأنشطة أهلية ظهرت بطريقة تلقائية، وقامت بتلبية حاجات محلية عامة وخاصة، وأما كونه مصدرا لقوة الدولة، فيما خفف عنها من أعباء القيام"²⁸⁸

وقد تطور نظام الوقف الإسلامي من حيث التشريعات الخاصة به والمعاملات المتعلقة باستغلاله وأصلح اجتماع الفقهاء والعلماء وانتشر في البلاد الإسلامية انتشارا واسعا حتى أضحت ظاهرة اجتماعية واقتصادية وثقافية ذات أثر بالغ في حركية المجتمعات الإسلامية²⁸⁹.

عرفت الجزائر كغيرها من البلدان الإسلامية نظام الوقف غير أننا لا نملك إلا القليل من النصوص حول وضعية الأوقاف قبل التحاق الجزائر بالدولة العثمانية نذكر منها أوقاف تلمسان التي يعود تاريخها إلى عهد الملك أبي الحسن

²⁸⁴ عبيد بوداود، "الوقف في المغرب الإسلامي ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين 15/13م ودوره في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية"، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011، ص531.

²⁸⁵ محمد زنيبر، الحبس كمظهر من مظاهر السياسة الاجتماعية في تاريخ المغرب، ندوة مؤسسة الأوقاف في العلم العربي الإسلامي، 143هـ/1983م، ص201.

²⁸⁶ المصدر نفسه، ص202.

²⁸⁷ محمد زنيبر، الحبس كمظهر من المظاهر... مرجع سابق، ص203.

²⁸⁸ ابراهيم البيومي غانم، نحو تفعيل دور نظام الوقف في توثيق علاقة المجتمع بالدولة، "المستقبل العربي"، العدد 266، أبريل 2001، ص45.

²⁸⁹ جماعي، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، إعداد: أ. زكية زهرة، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، طبعة خاصة وزارة المجاهدين 45، ص256.

المريني 1331-1351م وما حبسه على المسجد الذي حبسه المعروف بجامع العباد والزواية والمدرسة المتصلين به²⁹⁰

وهذا ما يسمح لنا بالقول بأن الوقف كتنظيم له إجراءاته الخاصة وهيكله المنظمة ومؤسساته المتميزة، ولم تقتصر الوقف على الرجال فقط بل شمل النساء أيضا، كما ضم الأغوات والحكام ومتوسطي الحال والتجار وكل واحد حسب إمكانياته الخاصة حتى أضفى ظاهرة عامة في حياة الجزائر العثمانية، وهذا الوضع يدفعنا إلى التساؤل عن الأسباب التي كانت وراء انتشار هذه الظاهرة بهذا الشكل الواسع؟.

وحسب الأستاذ سعيدوني فيرجعها للأسباب التالية:

- ميل السكان إلى التدين والتقشف، ونلمس ذلك في إتباع الطرق الصوفية والزوايا والتنافس على فعل الخير وذلك ما يرد من عبارات في وثائق الوقف: "قصد بذلك وجه الله العظيم ورجاه ثوابه الجسيم إن الله يجزي المتصدقين ولا يضيع أجر من أحسن عملا".

-الوضع الأمني الذي عاشته البلاد آنذاك والمتميز بالأمن من خلال الهجمات والاعتداءات الخارجية والاضطرابات الداخلية المتتالية، وتزايد الكوارث الطبيعية واستخدام الباشاوات للدين بغرض إحكام سيطرتهم على السكان، فلجأوا إلى الكثير من ممتلكاتهم لإظهار التقوى والتقرب من المرابطين ورجال الدين، وقد يكون خوف هؤلاء من مصادرة أملاكهم دافعا لذلك²⁹¹.

وفي مدينة الجزائر اشتهر نوعان من الوقف²⁹²، الوقف الذري أو الأهلي والوقف الخيري²⁹³ وتفيد عقود التحبیس المحفوظة ضمن سلسلة المحاكم الشرعية بوجود اختلافات عديدة في أحكام الحبس بين المذهبين، المالكي والحنفي وأبرز اختلاف هو عدم جواز التحبیس الذري عند المذهب المالكي، وجوازه عند الحنفي، وهذا ترغيبا للناس في الخير²⁹⁴ وفي هذا الشأن يقول بن حمدان خوجة: "...لقد أنشئت حسب قوانيننا مؤسسات خيرية وأوقاف تهدف كما ذكرنا إلى تحسين أوضاع الفقراء والتخفيف من مصائبهم وهناك طرق متعددة للتصرف في هذه الأملاك وفقا لمبادئ القضاء المالكي، إن الذي يهب ملكا ما يتعهد بأن يسمح للمؤسسة المهدي لها أن تشرع حينما بالتمتع بذلك الملك، وحسب مبادئ القضاء الحنفي فإن إرادة الواهب تصبح بدورها قانونا وبمقتضى هذه القوانين أجمع الفقهاء على أن

²⁹⁰ مرجع نفسه، ص 257.

¹⁰² محمد بوشناق، أوقاف الموظفين والجنود بإيالة الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة: المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، العدد الأول، 2015، ص 284.

²⁹² Mercier.E. le code de hobous ou ouakf. Selon la législation musulmane. Constantine. 1899.

²⁹³ فراج أحمد حسين-محمد كمال الدين، نظام الإرث والوصايا وأوقاف في الفقه الإسلامي، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، 2002، ص 188.

²⁹⁴ بن حموش مصطفى، فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني، 1549-1830، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، 2000م، ص 188.

يطبق المذهب الحنفي على كل الهبات المشروطة، ولذلك لرفع الموارد الخاصة بالطبقات المعوزة²⁹⁵ وبالتالي فمعظم عقود التحبیس الموجودة في سلسلة المحاكم الشرعية هي عقود على المذهب الحنفي ولعل ذلك راجع إلى أن معظم الواقفين كانوا من أتباع هذا المذهب، من أتراك وكراغلة وبعض الحضر، ويظهر هذا الأخير تساهلا فيما يخص قضية الوقف ومن ذلك أنه كان يجيز انتفاع الواقف وعقبه من عوائد الحبس الذي لا يحول إلى الغاية التي أوقف من أجلها إلا بعد انقراض الأعقاب أو الورثة الذين ورد ذكرهم في عقود التحبیس²⁹⁶، ينتفع بغلة ذلك مدة حياته مقلدا في ذلك بعض أئمة مذهب أبي حنيفة.

أما فيما يخص المذهب المالكي فإنه يظهر تشددا في قضية صرف الوقف للغاية التي أوقف من أجلها، أي صرف عوائده للمصلحة العامة بل تردد أو إرجاء إلى وقت آخر، وانتشر هذا النوع من الوقف داخل البلاد أين كان سكانها من أتباع هذا المذهب ثم أصبح يتعمم بفحص مدينة الجزائر نتيجة انقراض الورثة والأعقاب بسبب الجوائح التي كانت تضرب البلاد كالأوبئة والمجاعات، ومن أهم مؤسسات الوقف في الجزائر نذكر مايلي:

1/ أوقاف الحرمين الشريفين:

إن تنظيم الأوقاف الخاصة بالحرمين الشريفين بالجزائر ليس معروفا على وجه التحديد، بحيث لا نعرف متى أضحت المدينتان مكة المكرمة والمدينة المنورة تنتفعان بعائدات الأوقاف المخصصة لهما، وتشير أقدم الدفاتر المتعلقة بحسابات كراء الأوقاف المخصصة لمرجع الحرمين الشريفين يعود إلى عامي 1648-1649م²⁹⁷، أن تأسيسها سابق لمطلع القرن السابع عشر.

احتلت مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين الصدارة عن باقي المؤسسات الأوقاف القائمة بالجزائر، ويظهر ذلك جليا من الكم الهائل من الوثائق العائدة إلى تلك الفترة، إذ تشير عقود سجلات المحاكم الشرعية لمدينة الجزائر على سبيل المثال، بعقود التحبیس الذرية أو الأهلية²⁹⁸ أي الحبس على العقب التي حددت مرجعها الأخير لمؤسسة الحرمين الشريفين، مما يؤكد أن مؤسسة أوقاف الحرمين فازت بأهم قسط من العقارات الموقوفة²⁹⁸.

²⁹⁵ حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، مصدر سابق، ص 57.

المرجع نفسه، جماعي، الدولة الجزائرية الحديثة... مرجع سابق، ص 256.

نفسه، ص 285.²⁹⁶

²⁹⁷ شهاب الدين، الفهرس التحليلي للوثائق العثمانية، مركز الأرشيف الوطني، بئر حادم، الجزائر.

²⁹⁸ عائشة غطاش، "حول الوثائق المتعلقة بأوقاف الحرمين الشريفين بمدينة الجزائر"، أعمال ندوة الوقف في الجزائر أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، دراسات إنسانية، عدد خاص 2002، ص 146.

وضمن هذا المعطى، لاحظ قنصل فرنسا بالجزائر "فيليبفاليير" مدى اتساع أوقاف الحرمين الشريفين بقوله: "...أوقاف الحرمين واسعة لانتشار بمدينة الجزائر وسيأتي اليوم الذي ستستحوذ مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين على جميع العقارات".

وأضاف قائلا: "...وتكاد تكون جميع دور المدينة والبساتين المنتشرة بالضواحي تابعة لمرجع الحرمين".²⁹⁹

وسجل التمييز بدوره ما نصه:

"...إن هناك خطأ تصاعديا لعملية التحبيس ففي حين تم تسجيل 159 عقدا باسم الجامع الأعظم خلال 210 سنة من 1540 إلى 1750 م نلاحظ من جهة أخرى تأسيس 384 وقفية خلال الفترة الممتدة من 1750 إلى 1841 م وعلى الخصوص تأسيس 227 وقفية خلال أواخر حكم الدايات"³⁰⁰، بالإضافة إلى الإقبال الواسع على عملية التحبيس أو الوقف فان المشرفين على مؤسسات الأوقاف عملوا على تطويرها من خلال إضافة عقارات عن طريق الشراء.

المساهمون في أوقاف الحرمين الشريفين:

ساهمت جميع شرائح المجتمع تقريبا في مجال الوقف من خاصة و عامة على السواء، فهناك الحكام و الموظفون السامون وموظفو الإدارة المحلية نذكر منهم: الداى حسن باشا، الداى علي باشا عام 1716م، الداى مصطفى باشا عام 1800م، الداى ابراهيم باشا بن رمضان 1740م، كما تطلعنا عقود المحاكم الشرعية بأسماء بايات آخرين أوقفوا عدة عقارات مثل بايات التيطري مصطفى باي 1781م وجعفر باي 1820م، بالإضافة إلى الكراغلة وشرائح من حضرو أتراك"³⁰¹.

و بناء على ما سبق، هل كانت المرأة في الجزائر بمعزل عن ظاهرة الوقف؟، وهل كان لها ثروة مالية ودور اجتماعي تشترك من خلاله في الوقف الذي أنشأه الرجل؟.

إن المصادر المختلفة التي بحوزتنا تشير أن النساء ساهمن بأموالهن في تدعيم الوقف و المساهمة فيه ومن ميراثهن وهو الشائع في المجتمع المتكون من مسكن و أرضي زراعية مسقية و أراضي البور المعدة للحراث و التي تنتشر في مختلف الفحوص و الأوطان، والأموال التي حبستها المرأة هي الأملاك التي ورثتها على وجه الخصوص، سواء أكان

²⁹⁹ EMERIT M., Les aventures de thedenat esclave et ministre d'un bey Afrique; **R.A.** 1948.P25.

³⁰⁰ عبد الجليل التميمي، وثيقة عن الأملاك المحبسة باسم الجامع الأعظم بمدينة الجزائر، بمدينة الجزائر، منشورات المجلة التاريخية المغربية، تونس، 1980، ص19.

³⁰¹ عائشة غطاس، "حول الوثائق المتعلقة بالأوقاف....مرجع سابق، ص148.

ميراثها هذا من أبيها أو زوجها أو أخيها، وهو الشائع، أو كان من أمها أو ابنها وهو الاستثناء³⁰² وعادة ما كانت تشتري العقار لتجسسه كما كان يفعل الرجل، وكانت الصكوك الأوقاف هي نفسها تصرح بمصدر هذه الأملاك، وهو تقليد دأب عليه العدول في تحريرهم للعقود وذلك بهدف إثبات الملكية وتأكيداتها ونفي الشبهة عنها³⁰³.

من النساء اللواتي أسهمن في تأسيس الأوقاف لصالح الحرمين، فاطمة بنت محمد الفهري 1645 م، وأمنة زوجة علي بن محمد، وعائشة بنت حسن رايس 1656 م، فاطمة بنت محمد الأندلسي 1666 م والسيدة خديجة بنت الحاج يحي سنة 1208 هـ/ 1793 م حيث جاءت العبارات واضحة وصريحة، ونقلت بموجبها المحبسة ميراثها كله إلى فائدة أبنائها "...أشهدت أمة الله خديجة ابنة الحاج يحي من ذكر على نفسها، وهم يعرفونها ذاتا واسما وصفة، أنها حبست ووقفت جميع الورث الذي نأبها من أبيها الحاج يحي المذكور، من الأرض الكائنة بهوارة المعلومة بأرض أولاد العربي على نفسها أولا مدة حياتها"³⁰⁴.

وجاء في مثال السيدة أمة الله قمر بنت الحاج مصطفى أنها حبست جميع الجنان الكائن بكاف سليطن، نظر المدية المحمية بالله تعالى الذي أخذته من زوجها الصاير إلى عفو الله محمد بن كاك محمد... لجميع منافعه ومرافقه وكافة حقوقه وما عد وعرف ونسب إليه قديما وحديثا³⁰⁵.

أما طبيعة الأوقاف التابعة لمؤسسة الحرمين فيمكن الحديث عن الأملاك العقارية بالمدن من دور محلات سكن، حوانيت وأفران وحمامات وفنادق ومحلات تجارية وغيرها، أما خارج المدن فنجد الضيعات والحدائق والمساحات الزراعية.

لقد كانت مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين الصادرة على مؤسسات الوقف الأخرى القائمة بمدينة الجزائر وكانت مكانة روحية مميزة، كما كانت أحد أبرز مظاهر التواصل بين الجزائر وبلاد الحجاز. ونظرا لاتساع مجال الوقف وتكاثر عائداته، أضى وكيل أوقاف الحرمين الشريفين يحظى بمكانة مميزة، كما كان للوكيل مهمات عديدة ومتنوعة أهمها التكفل بحماية ورعاية ممتلكات التابعة للمؤسسة.

وكانت الهيئة المشرفة على إدارة وتسيير أوقاف الحرمين تضم عددا كبيرا من الموظفين، يتصدرهم الوكلاء، ويلهم اثنان من العدول يعينهم القاضي لمساعدة الوكلاء والنظار، أما المشرف على الحسابات فيدعى الصبايحي أو

115 ودان بوغوفال، أوقاف مليانة والمدينة في العهد العثماني. دراسة في النشاط الاقتصادي والبنية الاجتماعية والحياة الثقافية، جامعة الجزائر. 2007/2006، ص 273.

116 نفسه، ص 173.

304 نفسه، ص 274.

305 نفسه، ص 274.

العداد، بالإضافة إلى ذلك هناك عدد من الشواش يتصدرهم باش شواش، وكان الشواش يسهرون على مراقبة الممتلكات الموقوفة لصالح الحرمين، ومراقبة المداخل.³⁰⁶

ونظرا لانتشار أوقاف الحرمين عبر مختلف المدن الجزائرية، منها المدية والبليدة وشرشال وعنابة وقسنطينة وهران ومستغانم وتلمسان وغيرها من المدن، فقد أحدثت هيئة لإدارة ورعاية الأملاك الموقوفة لصالحها على مستوى كل مدينة.

ونظرا لإشراف مؤسسة الحرمين بمدينة الجزائر على جل الأوقاف العائدة لها، فقد كان النظارة أو الوكلاء بمختلف أنحاء البلاد، ملزمين بتقديم الحسابات والعائدات إلى الإدارة المركزية على مستوى مدينة الجزائر. وكان تعيين النظارة على مستوى المدن من صلاحيات وكيل أوقاف الحرمين الشريفين، مثلما تثبتته وثيقة تعيين السيد حسان الإنكشاري العنابي المدعو الخراط في شهر ذي القعدة من عام 1212هـ/ماي 1798م وكيلًا لأوقاف مدينة عنابة وخارجها.

ومما كان يجبي من مداخل أو عائدات تلك الأوقاف كان يوجه جزءا هاما منه سنويا كصدقة إلى فقراء الحرمين الشريفين وهو ما اصطلح على تسميته بالصرة³⁰⁷.

لكن توجيه الصرة بشكل منتظم خضع للظروف المحيطة بحركة التنقل، كالأوضاع الأمنية والصحية وما إلى ذلك، مما جعل توجيهها يتأخر أحيانا لبضع سنوات، وكانت حصص الصدقة تقسم بمدينة الجزائر على مستوى هيئة المجلس العلمي بحضور النظارة على الأوقاف وشيخ البلد وأمين الأمناء وعدد من الأعضاء المؤسسة العسكرية، ويتم ذلك تحت رعاية الباشا أو الداوي، كما كان يحضر المجلس عدد من الأعيان ووجهاء المدينة ممن يتأهبون للرحلة إلى البقاع المقدسة³⁰⁸.

وأصبح حقا مشروعا أكتسب حصانة ومناعة تبعد أنظار الطامعين وأصبحت الأملاك الموقوفة لأي مأمّن من الضرائب والمصادرات، وبالتالي أعطى لهذه المؤسسات الخيرية الفرصة في الارتقاء بالعمل الخيري بين فئات المجتمع، كما حازت هذه المؤسسات أملاكًا عقارية وأراضي زراعية ومراعي وعابات وغيرها من الأملاك الأخرى.

³⁰⁶ Bontemps; Manuel des institutions algériennes. p25.

¹¹⁸ الصرة هي تلك الأموال والودائع التي كانت تذهب مع وفد الحجاج، يحملها أمير الركب أو رئيس البعثة إلى الحرمين الشريفين زمن الحج، وتتكون من هدايا و صدقات من مداخل للأوقاف تبعت لأمرأ الحجاز والأشراف والعلماء والمجاورين والفقراء والجالية المغربية المجاورة هناك التي كان لها وجود تاريخي خاصة في المدينة المنورة. وكانت الصرة تمثل روابط الأخوة الروحية بين الجزائر والحرمين الشريفين. و ظهرت كعادة عثمانية سنّها السلطان محمد شلي 1421/1413م لمساعدة فقراء الحجاز.

³⁰⁸ الزهار أحمد الشريف، مذكرات نقيب الأشراف، نشر أحمد توفيق المدني، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1974، ص 39-40.

وإذا كان في الوقف زيادة عن حاجة الموقوف لهم، "لكن من جهة وقف الملوك فبالإمكان صرفه في مجالات لم يوقف عليها كدفع أجور المعلمين، والوقف بهذا المظهر سينشئ الترابط بين أفراد الشعب الواحد ويحسن وضع المحرومين"، وقد تطور الوقف الإسلامي مع تطور الزمن، وخاصة خلال العهد العثماني لأسباب سياسية واقتصادية. وكان الوقف في الجزائر على الدوام يؤدي وظائف عديدة أهمها خدمة الدين والتعليم والتضامن الاجتماعي بين مختلف طبقات المجتمع.

ويستعمل الوقف عادة في العناية بالعلم والعلماء والطلبة الفقراء والعجazy والعناية بالمساجد والزوايا والأضرحة، بما في الطرقات العامة والعيون والمياه الصالحة للشرب، وكذلك رعاية فقراء مكة والمدينة، فهي تقوم بإعانة أهالي الحرمين الشريفين المقيمين بالجزائر أو المارين بها بعد التثبيت من صحة انتسابهم للاماكن المقدسة و تتكفل بإرسال حصة من مداخلها إلى فقراء الحرمين الشريفين في مطلع كل سنتين عن طريق مبعوث شريف مكة أو بواسطة أمير ركب الحجاز، كما تقتطع من هذه الإعانات مبالغ لتسديد رواتب الموظفين وأخرى لصيانة العقارات الموقوفة، وكذلك يوكل إليها حفظ الإعانات والإنفاق على ثلاثة مساجد حنفية داخل مدينة الجزائر يسيرها عدد هام من الموظفين بعضهم تركي والبعض أندلسي، وكانت هذه مداخل الأملاك المحبسة تجمع وتضبط وتصفى جل الحسابات المتعلقة لها بالمجلس القضائي الأعلى الكائن مقره بالجامع الأعظم بحضور اللجنة المشرفة على مؤسسة الحرمين وكذا المفتين المالكي والحنفي، والقاضيين المالكي والحنفي، وبحضور شيخ البلد وأمين الأمناء، وممثل عن الجيش، ويتم كل ذلك تحت رعاية الداي³⁰⁹.

أصبحت مؤسسة الحرمين الشريفين بفضل النشاطات التي تقوم بها و السمعة التي تتمتع بها و المكانة التي تحتلها تشرف على حوالي ثلاثة أرباع الأوقاف كلها و هذا مما دفع أحد المسافرين الأوروبيين إلى القول بان مساكن مدينة الجزائر و الحدائق القريبة منها تكاد تكون ملكا لمؤسسة الحرمين الشريفين، وهذا ما نستخلصه من التقارير الفرنسية التي تعود إلى السنوات الأولى للاحتلال واعتمادا على الدفاتر الرسمية فان أملاك الحرمين الشريفين كانت توفر مدخولا سنويا يبلغ 4322270 ف فرنسي بالإضافة إلى 6 مطاحن خارج البلد توفر مدخولا قدره 57.509 فرنك .

³⁰⁹ الزهار، المذكرات، مصدر سابق، ص 159

تختص هذه المؤسسة الوقفية بالأحناف، أسسها شعبان باشا سنة 1073هـ/1662م، وقد كانت تشرف على تسيير ستة جوامع حنفية ومسجدين لمدينة الجزائر وهي على التوالي:

*الجامع الجديد.

*جامع صفر.

*جامع شعبان باشا.

*جامع كتشاوة.

*جامع حسين داي "ميزومورطو".

*جامع علي خوجة.

*جامع دار القاضي.

*مسجد الشبارلية،

وهكذا نلاحظ أن الدور الأساسي لهذه المؤسسة يكمن في بناء المساجد الحنفية وترميمها بما في ذلك الزوايا، وإقامة العيون، تهيئة الثكنات، مساعدة أشرف المدينة والتكفل لدفع أجور الطلبة المكلفين بتلاوة القرآن الكريم بالمساجد وتوزيع بعض الصدقات.

تأتي مداخل سيل الخيرات مباشرة من كراء واستغلال الأملاك الموقوفة لفائدتها وقد يبلغ عدد هذه الأملاك الموقوفة على الجامع الأعظم فقط 157 ملكية، منها 40 ملكية زراعية لفحص الجزائر حسب وثائق البايليك، كما تملك 331 ملكية 119 منها غير مستغلة في السنوات الأولى من تاريخ الاحتلال وهذا ما يوفر دخلا سنويا يقدر ب16000ف. صرف منها 14383ف على صيانة المساجد وإعانة الفقراء، سد حاجة المشرفين عليها وذلك قبل أن تنخفض المداخل الى 1363ف سنة 1873م بفعل السياسة الاستعمارية التي أضرت كثيرا بأوقاف سبل الخيرات.

3/أوقاف مؤسسة بيت المال:

تعتبر مؤسسة بيت المال من التقاليد العريقة لإدارة الإسلامية بالجزائر التي تدعمت في العهد العثماني و أصبحت تتولى أعانة أبناء السبيل و اليتامى والفقراء والأسرى و تتصرف في الغنائم التي تعود للدولة كشؤون الخراج و تحرص على شراء العتاد وإقامة المرافق العامة من طرق و جسور و تشييد أماكن للعبادة من مساجد و زوايا و تهتم بالأملالك الشاغرة التي ليس لها ورثة فتضعها تحت تصرف الإدارة والخزينة العامة باعتبارها أملاكاً للجماعة الإسلامية بما في ذلك التركات وأملاك الغائبين وبعض الأملاك الخيرية مثل دفن الأموات من الفقراء وأبناء السبيل و منح الصدقات للمحتاجين مكان يشرف على هذه المؤسسة الخيرية موظف سامي يعرف ببيت المالجي يساعده قاضي يقب بالوكيل يتولى شؤون التسجيل يعرفان بالعدول كما يلحق بها بعض العلماء وقد لاحظ الفرنسيون عند فتحهم لمدينة الجزائر ضخامة مداخل مؤسسة بيت المال وهذا ما دفعهم إلى التدخل في شؤونها بحجة تنظيمها ليسهل عليهم الاستحواذ على مداخلها والتي بلغت أسبوعيا 180 فرنك أما مصدر هذه الأموال فيعود أساسا إلى حصة بيت المال من الزكاة والأموال الشاغرة.

4/أوقاف أهل الأندلس:

أصبحت مؤسسة خيرية ذات مردود مالي محترم يوزع على بعض العائلات الأندلسية، يخصص المردود أساسا على التعليم والشعائر الدينية، بالإضافة إلى سد حاجيات أبناء السبيل والفقراء والمعوزين. يمثل أهل الأندلس من حيث الوضع الاجتماعي المميز جماعة الأشراف التي حظيت بأوقاف عديدة التي ينفق ريعها على الزاوية الخاصة بهم والتي يرجع الفضل في تشييدها إلى الباي محمد بكداش 1121هـ/1700م وقد كان يشرف على هذه الأوقاف وكيل خاص يعرف عادة بنقيب الأشراف وقد تولى هذا المنصب في الفترة الأخيرة من الحكم العثماني كل من الحاج علي الشريف وابنه احمد بن الحاج علي الذي أبعد من مدينة الجزائر 1882م بأمر من الإدارة الفرنسية وقد اضمحلت أوقاف جماعة الأشراف داخل مدينة الجزائر وخارجها في السنوات الأولى من الاحتلال ولم يعد ينتفع بها أي فرد من هذه الجماعة التي كانت تقدر 200-300 عائلة وأسرة بعد إن باع وكيل الإشراف الزاوية الخاصة بجماعته إلى احد الأوروبيين سنة 1882م.

5/أوقاف المرابطين والمعوزين من الجند:

كانت أوقاف المرابطين بمدينة الجزائر وفحصها تتوزع على تسعة أضرحة من مجموع 19 ضريحاً تحظى بشعبية لدى سكان الجزائر منها 18 داخل المدينة وواحد فقط وهو ضريح سيدي بن علال أغوت بمنطقة القبائل الكبرى، ويأتي ضريح سيدي عبد الرحمن في طليعة هذه الأضرحة من حيث الأوقاف المخصصة له . إذا يبلغ عددها 69 وقفا تؤتي مردوداً معتبراً حسب إحصاء 1834م وهذا ساعد على توفير مدخل سنوي قدر بـ 6000 فف سنة 1887م كان يصرف جزء منها على إعانة المحتاجين من سكان الجزائر بنسبة 3 فرنكات للشخص الواحد بينما يصرف الباقي على العاطلين بزواية سيدي عبد الرحمن من أئمة وحزا بين وقراء، ومما يلاحظ أن أوقاف سيدي عبد الرحمن قد أصبحت عشية الاحتلال تزيد عن 82 وقفا منها ما كان يقع خارج الجزائر بدليل أن تونس كانت ترسل كل سنة حمولة زيت لفائدة الضريح.

6/ وقف شعيب أبي مدين:

لم يستثن الوقف الجزائري الحرمين الشريفين بالاهتمام والتوقيف، بل وسع هذا الاهتمام والتقدير ليشمل القدس الشريف، فقد تأسس هذا الوقف من طرف ابن المتأله الصوفي شعيب أبي مدين دفين تلمسان في 03 نوفمبر 1320م³¹⁰.

وكان وقف شعيب أبي مدين أو وقف المغاربة في فلسطين يتركز في القدس، البلدة القديمة التي بها أوقاف عديدة هناك للمغاربة، ومنطقة "قنطرة أم البنات" وهي عبارة عن وقف مكون من زاوية، وحي الحارة، و متاجر وقطعتين أرضيتين، والزاوية بها 25 بيت تأوي غير المتزوجين، وحي الحارة بها أربعة عشر منزلاً فسيحاً يتم كراؤه، أما في البلدة القديمة فيوجد ستة عشرة دكاناً للوقف المغربي، وفرنوا وقطعتين أرضيتين إضافة إلى أوقاف متفرقة في اللد، و الناصرة، وعمان، وغزة³¹¹.

دور الأوقاف في مدينة الجزائر:

يستعمل الوقف في أغراض كثيرة ومنها العناية بالعلم والعلماء والطلبة والفقراء والعجزة واليتامى وابن السبيل و العناية بالمساجد والمدارس والزوايا والأضرحة وبفقراء الأندلس والأشراف بما في ذلك فقراء مكة والمدينة و

³¹⁰ Busson De Janssens Gérard. L'Indépendance du culte musulman en Algérie. Librairie générale du droit et de jurisprudence. Paris. 1951. p.23.

³¹¹ AOM . Compte rendu de la mission effectuée en Palestine par Lounis Mahfoud. 81F/841.

تدريس المذهب الحنفي وكذلك إصلاح الطرقات العامة و العيون و المياه الصالحة للشرب كما لعبت هذه الأوقاف طول الفترات التاريخية دورا بارزا في الحياة الاجتماعية بتضامن المجتمع و ترابطه و توزيع ثروته على العلم ورجاله، على الفقراء، على المؤسسات الدينية، على عيون الماء، وكان بين هؤلاء الواقفين مدنيون و عسكريون و الوازع و راء الوقف، الحماس للدين و العلم وإصلاح المجتمع .

و تعتبر أوقاف الجامع الكبير بمدينة الجزائر من المؤسسات الغنية في المجتمع الجزائري لذلك كانت وسيلة للنفوذ و الإثراء لمن يتولى و كالتها من العلماء و نحوهم، و كانت عائلة قدوره متولية وكالة أوقاف الجامع الكبير مدة طويلة ، و أستطاع سعيد قدوره أن يبني زاوية و مدرسة من فائض أوقاف الجامع الكبير، أما طبيعة الأوقاف التابعة لمؤسسة الحرمين فيمكن الحديث عن الأملاك العقارية بالمدن من دور محلات سكن، حوانيت و أفران و حمامات و فنادق و محلات تجارية و غيرها، أما خارج المدن فنجد الضيعات و الحدائق و المساحات الزراعية. لقد كانت مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين الصدارة على مؤسسات الوقف الأخرى القائمة بمدينة الجزائر و كانت مكانة روحية مميزة، كما كانت أحد أبرز مظاهر التواصل بين الجزائر و بلاد الحجاز.

ونظرا لاتساع مجال الوقف و تكاثر عائداته، أضى و كيل أوقاف الحرمين الشريفين يحظى بمكانة مميزة، كما كان للوكيل مهمات عديدة و متنوعة أهمها التكفل بحماية و رعاية ممتلكات التابعة للمؤسسة. و كانت الهيئة المشرفة على إدارة و تسيير أوقاف الحرمين تضم عددا كبيرا من الموظفين، يتصدرهم الوكلاء، و يلهم اثنان من العدول يعينهم القاضي لمساعدة الوكلاء و النظار، أما المشرف على الحسابات فيدعى الصبايحي أو العداد، بالإضافة إلى ذلك هناك عدد من الشواش يتصدرهم باش شواش، و كان الشواش يسهرون على مراقبة الممتلكات الموقوفة لصالح الحرمين، و مراقبة المداخل.³¹²

ونظرا لانتشار أوقاف الحرمين عبر مختلف المدن الجزائرية، منها المدية و البليدة و شرشال و عنابة و قسنطينة و وهران و مستغانم و تلمسان و غيرها من المدن، فقد أحدثت هيئة لإدارة و رعاية الأملاك الموقوفة لصالحها على مستوى كل مدينة.

ونظرا لإشراف مؤسسة الحرمين بمدينة الجزائر على جل الأوقاف العائدة لها، فقد كان النظار أو الوكلاء بمختلف أنحاء البلاد، ملزمين بتقديم الحسابات و العائدات إلى الإدارة المركزية على مستوى مدينة الجزائر.

³¹² Bontemps; Manuel des institutions algériennes. p25.

وكان تعيين النظار على مستوى المدن من صلاحيات وكيل أوقاف الحرمين الشريفين، مثلما تثبته وثيقة تعيين السيد حسان الإنكشاري العنابي المدعو الخراط في شهر ذي العقدة من عام 1212هـ/ماي 1798م وكيلا لأوقاف مدينة عنابة وخارجها.

ومما كان يجبي من مداخل أو عائدات تلك الأوقاف كان يوجه جزءا هاما منه سنويا كصدقة إلى فقراء الحرمين الشريفين وهو ما اصطلح على تسميته "بالصرة".

لكن توجيه الصرة بشكل منتظم خضع للظروف المحيطة بحركة التنقل، كالأوضاع الأمنية والصحية وما إلى ذلك، مما جعل توجيهها يتأخر أحيانا لبضع سنوات، وكانت حصص الصدقة تقسم بمدينة الجزائر على مستوى هيئة المجلس العلمي بحضور النظار على الأوقاف وشيخ البلد وأمين الأمناء وعدد من الأعضاء المؤسسة العسكرية، ويتم ذلك تحت رعاية الباشا أو الداي، كما كان يحضر المجلس عدد من الأعيان ووجهاء المدينة ممن يتأهبون للرحلة إلى البقاع المقدسة³¹³

رابعا:--التعليم

تميزت الحياة العلمية و الثقافية في الجزائر العثمانية انتشار ظاهرة التصوف والدروشة حتى شاعت بين الفقهاء والأولياء، كما انتشر النقل والتقليد حتى كاد أن يكون أعى³¹⁴ مما أدى إلى ضعف التعليم بكامل الجزائر وانحطاط العلوم³¹⁵، وانحصرت الثقافة على الشروح والحواشي الفقهية والعقائدية، أما الأدب والشعر وفنونهما فلم يتعد المدائح النبوية والمقطوعات الصوفية وبعض الأشعار الغزلية والمقامات والأسجاع النثرية، زيادة على ذلك أصبح أسلوب العلماء يغلب عليه العامية ولا سيما في العقود الشرعية والخطب المنبرية، ولعل وصمة اللحن الفاحش وركاكة الأسلوب هما اللتان وقفتا عائقا في طريق من يريد تدوين ثقافة الجزائر وتاريخ ماضيها³¹⁶.

وعموما أن منتوج علماء الجزائر غلب عليه طابع التقليد من حيث التفكير، تارة لعلماء المغرب الأقصى وتونس، وتارة لعلماء المشرق العربي، تارة لعلماء بجاية، أو تلمسان، أو الأندلس، أما فيما يخص التعليم فلم يتعد القرآن الكريم والحديث والفقه والتفسير³¹⁷، وأصبحت الحياة الثقافية بعيدة عن الإبداع والتجديد، كما أصبح غاية

³¹³ الزهار، المذكرات، مصدر سابق، ص39.

²⁹⁴ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م، ج3، ص186.

³¹⁵ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائرمرجع سابق، ص187.

³ محمد بن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، ط2، ش.ون.ت، ص 44

³¹⁷ محمد بن ميمون، التحفة المرضيةمصدر سابق، ص 47.

الكثير من المتعلمين كسب المعارف التي خلفها السلف دون الاجتهاد في كسب الجديد من المعارف³¹⁸. وعظمت العقول وخملت، وأصبح دورها يقتصر على الحفظ والنقل³¹⁹.

خلال العهد العثماني ظلت الأوقاف والإعانات المقدمة من طرف المحسنين والأثرياء الممول الرئيسي للمؤسسات التعليمية في تلك الفترة³²⁰، فكثيرا ما نجد الأهالي هم من يدفعون الأجور الشهرية للمؤدبين والأساتذة إما نقدا أو عينا (مبالغ مالية أو المؤن كالقمح والزيتون وغيرها...) ³²¹، بالإضافة إلى موارد الصدقة التي كان يقدمها المحسنون لطلبة³²². لأن السلطة العثمانية لم تكن لها مسار واضح في دعم هذه المراكز العلمية والثقافية، إلا من خلال بعض المسؤولين من دايات وباشاوات الذين ساهموا في عملية الوقف، لكن في شكل العام الإدارة العثمانية لم تتمتع بدفع العجلة التعليمية الذي غلب عليه الطابع الذاتي الحر، القائم بمجهودات الأفراد المتعطشين للعلم والمعرفة.

* طرق التدريس.

تميزت طرق الوقف بأنها كانت بدائية وبسيطة بساطة التعليم نفسه، في الغالب يوجه الطفل إلى المدرسة القرآنية في سن الرابعة، يقدم اللوح على المعلم ليكتب فيه البسملة والآيات الأخيرة من سورة الإسراء: "قل أدعوا الله أو ادعوا الرحمن..." تيمنا بالعبادة وصحة العقيدة.

كتابة الحروف الهجائية بحسب الترتيب المغربي، يتناول الحاضرون بخاصة من الشيوخ اللوح ليكتب كل حرف من هذه الحروف تبركا، علما أن حرف الفاء ينقط بنقطة تحتها، أما حرف القاف تأخذ نقطة واحدة فوقها. هناك أربعة حروف إذا وردت في آخر كلمة فأنها لا تعجم (تهمل) وهي: النون، الباء، الفاء، القاف، وتكتب الآيات في اللوح بقلم الرصاص وبقلم الحبر (الدواية)، على أن يتدرب على شكل الحروف والتفريق بينها ويتقنها يملئ عليه الشيخ الآيات وهذا بعد أن يكون قد أتقن كتابة الحروف على أن تراقب من طرف الشيخ³²³.

وقد جاء وصف طريقة التدريس على لسان عدة رحالة ومؤرخين، فبينوا إيجابيتها وسلبياتها حيث يقول كانكارت: "...والكتب التي تدرس في هذه المدارس هي القرآن والتفسير، وهم يكتبون بأقلام مصنوعة من القصب، على

³¹⁸ نفسه، ص 61

³¹⁹ سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ... مرجع سابق، ص 187.

³²⁰ يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 112.

³²¹ عبد الصمد حصاد ومحمد دلياز وآخرون، التعليم ومناهجه في إيالة الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، المجلد 15، العدد 2، 2021 م، ص 107.

³²² كانكارت، مذكرات أسير الداوي كانكارت قنصل أمريكا بالمغرب، ترجمة وتعليق وتقديم، إسماعيل العربي، د. م. ج. الجزائر، 1982 المصدر السابق، ص، ص 98.

⁹⁹

³²³ محمد السعيد بن سعد، الكتاتيب والزوايا بالجنوب الجزائري، مجلة: الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، العدد الثاني 2012، جامعة معسكر، ص 229.

ألواح مربعة مصنوعة من الخشب تطلّى بنوع من الصلصال الأبيض، وبعدها يحفظ الطالب درسه نمى اللوحة بغسلها بالماء، وهكذا دواليك، وهي طريقة اقتصادية للغاية بالنظر إلى أنهم لا يستهلكون الورق إطلاقاً في عملية القراءة³²⁴، وهو يثني على جمال الخط العربي رغم بساطة الوسائل فيقول: "والتعجب أنهم يكتبون خطاً عربياً في غاية الجمال، ولقد أتيت لي أن أرى مصاحف مكتوبة بالخط العربي يشرف أعظم مكتبة في العالم أن تقوم بإنجاز مثلها"³²⁵.

ولد انتشرت هذه الطريقة عبر جميع المدارس والكتاتيب والزوايا، "فالمؤدّب كان يجلس عادة في صدر الكتاب مترعاً على الحصر أو نحوه، مستنداً ظهره إلى الجدار، مرتدياً عمامة وجبة فوقها أحياناً برنس، وبيده عصا طويلة تصل إلى أبعد تلميذ عند الحاجة، وكان يلتفت بيمينه ويساره يراقب حركة التلاميذ وأدائهم لواجباتهم"³²⁶، وكان التلاميذ يلتفتون حول المدرس، ويشكلون نصف دائرة جالسين على الحصر.

تمثل هذه المرحلة الابتدائية، والظاهر إن المسجد أو الكتاب كان المنشأة الخاصة بهذه المرحلة، ويعقب إتمام التلميذ (petit de la croix) هذه المرحلة بعد تمكنه من حفظ القرآن باحتفال وسط المدينة، ويؤكد بيتيس دي لاكروا (Lacroux) يديرون الكتاتيب ويقرؤون وهم يغنون، وعندما يرتكب التلميذ ذنباً يضرب على قدميه، لكن marabouts "المرابطون إذا حفظ القرآن عن ظهر قلب فإنهم يجوبون به وسط أنغام الموسيقى وهو يرتدي اللباس الفاخر والمصحف على رأسه ويمشي وراء جميع التلاميذ"³²⁷.

كانت هذه المراكز متنوعة ومنتشرة عبر كل مناطق الجزائر العثمانية الحضرية والريفية، وكانت مدينة الجزائر في طليعة البلدان كثيرة الكتب والمكتبات والزوايا في طليعتها الزاوية الثعالبية الغنية بأوقافها فهي تطعم أعداد غفيرة من الزائرين وتؤمهم وتعلمهم وتقدم خدمات كثيرة للفقراء والمشردين ودون مأوى،

ومن جهة ثانية، تعتبر مدينة معسكر بفضل المدرسة المحمدية إحدى القلاع الحقيقية ومنارة حقيقية للعلم والعلماء في الجزائر العثمانية عموماً وبايليك الغرب خصوصاً وذلك من خلال البيوتات العلمية التي توارثت الوجاهة والمكانة

³²⁴كانكارت، مذكرات أسير.....مصدر سابق، ص98.

³²⁵ نفسه، ص98.

³²⁶ سعد الله، تاريخ الجزائر... ج1 مرجع سابق، ص339.

³²⁷ بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات. رحلات المغاربة في العهد العثماني، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص36

307 نفسه، ص32.

أبا عن جد، وأنجب بذلك الوطن الراشدي علماء أجلاء وفقهاء ومقرئين وشعراء ومؤرخين ورحالة، ثم توارثت هذه البيوتات العلمية الوظائف والقضاء والإمامة والتدريس نذكر من بينها عائلة: المشارفة، ابن التهامي، الخروبي، مصطفى بن المختار، وأبوراس الناصري، وغيرها كثير وأولت هذه الأسر العلمية عناية خاصة للزوايا ومعاهد العلم ومدارس التعليم ويوظف بها أجل العلماء والمدرسين ليقصدها الطلبة من كل الآفاق والأمصار³²⁸، أما الكتب فكانت تنتج محليا عن طريق التأليف والنسخ أو تجلب من الخارج، ولا سيما من الأندلس، مصر، اسطنبول وكان هنالك رصيد كبير من المكتبات، ويشهد الباحثون الفرنسيون أنهم جمعوا مخطوطات كبيرة من مختلف المدن الجزائرية، وأن المكتبات كانت غنية بشتى أنواع الكتب، كما اشتهرت مدينة الجزائر ببيع الكتب وتجليدها، و يوجد بها سوق يعرف سوق الوراقين الذي ذكره حمدان خوجة في المرأة والذي كان مخصصا لبيع الكتب وأن النساخين كانوا فيه بكثرة.³²⁹

ويؤكد الرحالة شالرهذه الحقيقة قائلا: "ومع ذلك فإن مدينة الجزائر تملك كثيرا من المدارس العادية التي يتردد عليها الأطفال ابتداء من سن الخامسة والسادسة فصاعدا، حيث يتعلمون القراءة والكتابة، ونظرا لأن الأمور لا تتطور بسرعة في هذه البلدان، فانا أميل إلى الاعتقاد بأننا مدينون للعرب بالطريقة التربوية التي تعرف عندنا باسم "الإنكاستر"، فكل تلميذ يحمل لوحة يمكن الكتابة عليها ومحو ما كتب بسهولة وعلى هذه اللوحة تكتب بوضوح سورة من القرآن ثم يقوم بعض التلاميذ بنقلها بعناية، كل على لوحته وبالتالي، التلميذ الذي يتعلم معنى الكلمة وطريقة كتابتها، يقوم بتعليم ذلك للتلاميذ، ويعلم الدرس بصوت مرتفع تلميذ كبير أو معلم يجلس في مكان مرتفع (سدة) وفي يده عصا يستعين بها لحفظ النظام ولإثارة انتباه الطلبة"³³⁰.

كما ظلت حركة التأليف والنسخ تزود المكتبات والساحة الثقافية بإنتاجها العلمي الذي يميّز فيه نوعين:

أ- إنتاج علمي متمثل في الشروح والحواشي العقائدية والفقهية.³³¹

ب- إنتاج أدبي متمثل في الشعر (بكل أغراضه) والنثر³³². وتميز الإنتاج الثقافي بمجموعة من الخصائص نوجزها

في ما يلي:

³²⁸ يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995، ص223.

³²⁹ حمدان بن عثمان خوجة.....مرجع سابق، ص74.

³³⁰ وليام شالر، مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824، تعريب و تعليق و تقديم إسماعيل العربي، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1982، ص82.

³³¹ المهدي البوعبدلي، "أضواء حول تاريخ الجزائر في العهد العثماني، مجلة الأصالة، العدد8، 1392 هـ/ 1972، ص273-274.

- إنتاج بسيط غلبت عليه العامية لمخاطبة عامة الناس التي لا تتقن اللغة العربية الفصحى والذي ساعد على

انتشار الأدب الشعبي.³³³

- الاعتماد على الخبر والرواية الشفوية في الكتابة التاريخية، الأمر الذي أدى إلى انتشار منهج السرد التاريخي.³³⁴

- غلب عليه طابع التقليد للسلف وغياب الإبداع والتجديد حتى العلوم النّقلية مثل الفقه واللغة التي لم تخرج

عن هذه القاعدة.³³⁵

- إنتاج ولید المناسبات خاصّة الشعر والنثر.³³⁶

كما اختفت علوم الكيمياء والملاحة والموسيقى والحساب، وحل محلها المعلومات السطحية القائمة على أساس قسمة التراكات، وأصبحت الكيمياء عبارة محلول ماء الورد، وأصبح بالتالي كل عالم مهتم بالعلوم والفنون أنه شاذ وغير منسجم مع روح العصر والمجتمع.

المناهج التعليمية:

ظلت طرق التعليم في الجزائر العثمانية بدائية وبسيطة بساطة التعليم نفسه بسبب طابع التقليد وغياب التجديد الذي اعتمد على التلقين و السرد. بناء على ما سبق، ما هي المناهج التعليمية المنتهجة في الجزائر خلال العهد العثماني؟.

اقتصرت مناهج التعليم آنذاك، في المرحلة الابتدائية على القراءة والكتابة وحفظ القرآن واستظهاره³³⁷، أما طريقة التدريس فكانت بسيطة ببساطة التعليم نفسه ولم تتغير طوال العهد العثماني. حيث يسهر على تعليم الأطفال في الابتدائي معلم يجلس في مكان مرتفع³³⁸، مسندا ظهره إلى الجدار مرتديا عمامة وحبه وفوقها أحيانا برنوس، بيده عصا طويلة يحفظ بها النظام داخل الفصل³³⁹، ولإثارة انتباه التلاميذ، أما عن طريقة التدريس التلاميذ فيطلب

³³² ابن ميمون، المصدر السابق، ص 62.

³³³ سعد الله، تاريخ الجزائر...، ج 2، مرجع السابق، ص 20-21.

³³⁴ أبو رأس الناصري، عجائب الأسفار...، مصدر سابق، ص 28.

³³⁵ المصدر نفسه، ص 28.

³³⁶ ابن ميمون، المصدر السابق، ص 62.

³³⁷ رحوي العباسية، -وضعية التعليم في الجزائر غداة الاحتلال الفرنسي، مخبر تطوير الممارسات النفسية والتربوية، 2011، العدد 7، ص 35.

³³⁸ عمار عمورة، وآخرون، (2009) الجزائر بوابة التاريخ قبل التاريخ إلى 1921، ج 2، الجزائر: دار المعرفة. المرجع السابق، ص 139.

³³⁹ رحوي العباسية، المرجع السابق، ص 35.

منهم أولا كتابة الحروف الأبجدية بحروف كبيرة وذلك بقلم القصب ويعيد كتابتها إلى أن يستطيع طالب ألف باء تاء التهجية، ثم يحدث نفس الشيء مع الأسماء والأفعال التي تستعمل بكثرة وبعد ذلك يتم تعليمهم عددا قليلا من الجمل المستعملة بكثرة في الحياة اليومية، فالأشياء المحفوظة لا تشرح للطلاب³⁴⁰، أما عن الأدوات التي يستعمل التلاميذ في عملية التمدريس يذكر في هذا الصدد وليام شارل أن كل تلميذ يحمل لوحة يمكن الكتابة عليها ومحو ما كتب عليها بسهولة، وعلى هذه اللوحة تكتب بوضوح سورة من القرآن، ثم يقوم بقية التلاميذ بنقلها بعناية كل على لوحته بالتوالي، والتلميذ الذي يتعلم معنى الكلمة وطريقة كتابتها يقوم بتعليم ذلك للتلاميذ الآخرين، ويعلم الدرس بصوت مرتفع³⁴¹، فالصورة التي تقدمها الدراسات تجاه مسالك التعليم في الفترة العثمانية لم تكن تختلف عن الموجودة قبل هذه الفترة حيث يمكن توصيفها على الوجه التالي:

الطريقة الأولى: طريقة الإلقاء والإملاء أو ما يسمى بالتلقين حيث يقوم العالم أو الفقيه بإلقاء درسه انطلاقا من قراءة للكتاب أو المتن أو الموضوع المدرس.

الطريقة الثانية: والتي كانت تتم في مرحلة التعليم العالي عن طريق الحلقة إذ يجتمع الطلبة حول شيخهم الذي يقوم بشرح والإملاء بمعنى أن الأستاذ يشرح الدرس ثم يقوم بإملاء الخلاصة على الطلاب، وفي الأخير يتلقى الشيخ سؤالاً أو اثنين وتكون عادة عبارة عن أسئلة يطرحها الطلبة بعد انتهاء الدرس. ولابد الإشارة لنقطة مهمة حول ممارسة التعليمية في مرحلة الابتدائية (طريقة التدريس) والتي ربما لازالت موجودة في الكتاتيب القرآنية لحد اليوم، ألا وهي ضرب الشيخ لتلاميذ على أصابعهم أثناء الدرس بتحديد المشاكسين منهم.

تعتبر المناهج جزءا من أجزاء المنظومة التعليمية بمختلف أنماطها ومستوياتها وما يهمنها هو تحديد دور المدارس والمتمدرس باعتبارهم الفئة الفاعلة في عملية التعليم، فإن الأعمدة الأساسية في بناء عملية التعلم يحملها المعلم والمتلقي.

أ- المعلمون: من الطبيعي أن يكون عمدة التعليم هو المعلم، فهو المثل الأعلى للتلميذ من الصبى إلى المراهقة، وهو ناشر العلم بين الناس بلسانه وكتابه وسلوكه وهو موجه التعليم، وفي فضل المعلم يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب"³⁴²، وكان المعلمون في الجزائر في الفترة

³⁴⁰ هاينريش فون ما لتسان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ج1، تروتق: أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976، ص97.

³⁴¹ وليام شارل، المصدر السابق، ص 82

³⁴² الحديث النبوي الشريف

العثمانية صنفين: معلموا المدن ومعلموا الأرياف.³⁴³ فمن يدرس الشباب هو أستاذ شيخ، ومن يدرس الفتيان هو معلم أو مدرس ومن يدرس الأطفال فهو المؤدب، وفي المدينة كانت العائلات هي التي تختار المعلم لتعليم أبنائها والمكان الذي يدرس فيه هؤلاء ويشترطون فيه شروط معينة³⁴⁴ مثل الزواج والأخلاق الفاضلة ويكون حافظا للقرآن الكريم معروفا بأدائه للصلوات... إلخ³⁴⁵ في حين يقوم سكان الريف والمداشر بإختيار المؤدب للصغار، أما المدرس فيتم تعيينه من طرف حاكم الداروفي الريف فيختاره شيخ القبيلة ويلجؤون إليه عند الفتن والمشاكل الاجتماعية والاقتصادية فهو محل تقديرهم وثقتهم، وللإشارة فإن مهنة التدريس كانت من أقل المناصب تنافسا بين العلماء باعتبارها من الوظائف العامة لهم، وكان تعيين العلماء والمدرسين في الوظائف التعليمية لا يخضع للإدارة الحكام³⁴⁶، وكان الأساتذة عادة لا يتحمل عبء التعليم فقط وإنما يعمل إلى جانب ذلك عمل آخر كالمؤذن أو الإمام لأنه قد وجد معلمين لا يتقاضون أجورهم وهذا مانستنتجه من زيارة الورتيلاني، لمدينة بجاية في كل عام خلال شهر رمضان ويقول: "ناويا لرباط وتعليمي لطلبة راجيا أن يكون لي حظا وفيرا منهم عندهم..."³⁴⁷ إذ غالبا ما كان المدرسين يتلقون مبالغ مالية في شكل هدايا أو عطايا في مناسبات معينة مثل شهر رمضان وعيد الفطروعيد الأضحى، وكانوا يتلقون في الحفلات حوالي مائة محبوب ويأخذ القاضي الحنفي والمفتي المالكي 50 صاغة شهريا. والجدير بالملاحظة أن هؤلاء الشيوخ والمدرسين كانوا قد حظوا بمكانة مرموقة بين الرعية كونهم حاملين للعلم وحافظين لكتاب الله³⁴⁸، ولعل من أشهر مدرسين الجزائر العثمانية والذين وردت أسمائهم في المصادر التاريخية وبلغت شهرتهم ربوع القطر الجزائري نذكر على سبيل المثال:

أبي رأس الناصري: بن أحمد ابن ناصر الراشدي الناصري³⁴⁹، المولود بنواحي مدينة معسكر بالجزائر يوم 27 ديسمبر 1751م، وتوفي يوم 27 أبريل 1823م، درس وأفاد ورفع العلم، وكان يدعي في زمانه الحافظ لقوة حفظه وتمكنه متى شاء من استحضار مسانده³⁵⁰ كان من بين العلماء البارزين الذين زحرت بهم كتب التراجم، تميز الناصري بكثرة

³⁴³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر، ج1، المرجع السابق، ص 322.

³⁴⁴ رحوي عباسية، المرجع السابق، ص 33.

³⁴⁵ أبو قاسم سعد الله، تاريخ الجزائر، ج1 المرجع السابق، ص 322.

³⁴⁶ مخفي مخطار، دور علماء الجزائر، اجتماعيا وسياسيا خلال العصر العثماني، (1830- 1518)، مجلة متون، مجلد 8، العدد4، جامعة الدكتور مولاي الطاهر، سعيدة، 2017، ص 272.

³⁴⁷ محمد الورتيلاني، الرحلة الورتيلانية الموسومة بزمه الأنظاري في فضل علم التاريخ والأخبار، المجلد1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 206، ص31.

³⁴⁸ عبد الجليل رحموني، إهتمامات المجلة الإفريقية بتاريخ الجزائر العثمانية 1520م، 1830م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة جيلالي اليابس، بلعباس، 2014-2015 م، ص144.

³⁴⁹ محمد الحنفاوي، تعريف الخف برجال السلف، [د.د.ن.]، الجزائر، 1906، ص 332.

³⁵⁰ محمد الحنفاوي، المصدر السابق، ص333.

المطالعة وسعة العلم زد على ذلك ما تميزت به عودته من المشرق من إستعاب لدراسات عصره، إذ أحاط بالمذاهب الأربعة وتخصص بالمذهب المالكي ثم تفنن بتدريس وإفادة الطلبة³⁵¹، إذ يقال أنه قد بلغ عدد من حضر دروسه بالمئات.

ب- التلاميذ: يعتبر محور العملية التعليمية، كان سنهم يتراوح بين السادسة والرابعة عشر، والتلميذ النابغ يكون قد ختم القرآن مرة أو عدة مرات وتعلم القراءة والكتابة وألويات الحساب، وكل أسرة يتقدم أطفالها في تعليمهم تعتبر محظوظة وسعيدة، وتعبّر عن فرحتها بالإحتفال بالطفل عند ختمه القرآن الكريم فتقيم مأدبة تدعو إليها الأطفال كما يشارك فيها الجيران في تبادل التهاني والأفراح³⁵²، وبعدها يختار التلاميذ إما أن يصبح مساعد للمؤدي في تعليم الصغار أو ينتقل لتعليم الثانوي لمواصلة تعليمه، إن عدد التلاميذ في كل كتاب كان يتراوح بين العشرين والثلاثين ويتوقف العدد على حسب كثافة سكان الحي وعلى نجاح المؤدب وشهرته. وكان معظم المتعلمين يتزودون علما واستكمالاً لدينهم وفهما لمبادئه وحدوده، وكان المتعلم مدفوعاً للعلم بدافع ذاتي هو لذة وهواية، فالطالب يقدم على التعليم لرغبة ملحة وتضحية كبيرة لأنه يجد فيها ذاته وميوله الشخصي، وهناك البعض أيضاً بدافع تقاليد الأسرة، إذ كانت بعض الأسر تتوارث التعليم.

إن ما يشير الفضول بشأن الممارسة التعليمية في الجزائر أثناء الحكم العثماني هو طيبة المواد التعليمية التي كان يتلقاها الطلبة في ظل غياب نظام مرجعي يأخذ شكل برنامج متفق عليه، فقبل الحديث عن المواد التعليمية لابد من الإشارة مبدئياً إلى طبيعة النظام التعليمي ككل ذلك أن المجتمع الجزائري قد اعتمد التعليم العربي التقليدي³⁵³، الذي أقتصر فيه البرنامج التعليمي على العلوم الدينية (القرآن والسنة) واللغوية والتاريخ بينما العلوم الأخرى لم تكن متطورة ومحدودة مثل الطب والصيدلية ولا جرم أن هذا الاتجاه الأحادي لتعليم أكسب البلاد تخلفاً فادحاً في ميدان الرعاية الصحية، وبالتالي أعطى فرصة ثمينة لظهور المشعوذين والسحرة للتلاعب بعقول الناس وعواطفهم والتي أصبحت مع مرور الزمن طريقة تقليدية مكتسبة، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تسعى جاهدة إلى الخروج من ظلامها الدامس، بقي المجتمع الجزائري خلال العهد مجتمعا إسلاميا شرقيا منغلقا على نفسه³⁵⁴.

³⁵¹ مجاهدي إبراهيم، الشيخ أبي راس الناصري، مجلة دراسات في علوم الإنسان والمجتمع، المجلد 4، العدد 3، جامعة جيجل، سبتمبر 2021 م، ص 119.

³⁵² أبو قاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 332.

³⁵³ آسيا بلحسين رحوي، وضعية التعليم في الجزائر غداة الاحتلال الفرنسي، مخبر تطوير الممارسات النفسية والتربوية، العدد 7، ديسمبر 2011 م، ص 59.

³⁵⁴ محمد طيب عقاب، مدخل إلى العمارة الجزائرية: قصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، دار الحكمة للنشر، الجزائر، 2009 م، ص 105.

المبحث الثالث: البرنامج التعليمي في الأطوار الثلاث

يعتبر التعليم من القواعد الأساسية التي تساعد على ازدهار الثقافة وانتشارها في المجتمع وقد أدرك الجزائريون أهمية التعليم ودوره³⁵⁵، إذ شهدت الجزائر في العهد العثماني وضعا تعليميا قد يكون خاصا مقارنة بما هدته في مراحل سابقة ولاحقة سواء من حيث مستويات التعليم أو المواد المدروسة... إلخ³⁵⁶ ويرجع ذلك إلى أن السياسة التعليمية لم يخطط لها من طرف السلطة العثمانية التي كان كل همها الجانب السياسي والعسكري³⁵⁷، الأمر الذي أدى إلى انتشار التعليم العربي الإسلامي التقليدي الذي يقوم أساسا على الدراسات الدينية واللغوية والأدبية، إذ أن المؤسسات التعليمية التي رأيناها على اختلاف مسمياتها من كتاتيب وزوايا ومساجد ومدارس قرآنية قد اجتمعت على الأداء التعليمي، حيث إنقسم التعليم إلى ثلاث أطوار مختلفة لكل طور برنامج خاص به وهي كالتالي:

1/ الطور الابتدائي: هو مرحلة الأولى من مراحل التعليم والقاعدة الأساسية التي تبنى عليه المراحل الأخرى كان يتم

هذا النوع من التعليم في غالب الأحيان بالكتاتيب أو المدارس الابتدائية حيث يتردد عليها الأطفال ابتداء من سنة الخامسة والسادسة فصاعدا ليتعلموا القراءة والكتابة³⁵⁸ والملاحظ أن هذا بخصوص الأطفال الذكور، وفيما يتعلق بتعليم المرأة فيرى شالر: "أن هناك مدارس للبنات والنساء هن اللواتي يدرن هذه المدارس أما المرأة الريفية فقد كانت أكثر ظهورا من المرأة الحضرية تلتقي في صباحها قواعد الدين والقراءة عند والدها إذ كان متعلما أو على يد مؤدب خاص"، لقد عرفت المدارس الابتدائية انتشارا وهذا ما أكدته ديشي المسؤول عن التعليم العمومي في الجزائر في قوله: "كانت المدارس بالجزائر والمدن الداخلية وحتى في أوساط القبائل كثيرة ومجهزة بشكل جيد، ففي مدينة الجزائر هناك مدرسة بكل مسجد"³⁵⁹، ويذكر أيضا دumas: "أن التعليم الابتدائي كان كثير الانتشار في الجزائر"³⁶⁰ بحيث أنه لم يكاد يوجد من لا يعرف القراءة والكتابة³⁶¹ كانت المدارس الابتدائية تتبع دائما مسجد معين أو زاوية معينة³⁶²،

³⁵⁵ دياب، زاهية وبرويس، ورده (2021) السياسة التعليمية في الجزائر في العهد العثماني: قراءة سوسيو تاريخية، مجلة العلوم الإنسانية، المجلد 21، العدد: 01، ص 101.

³⁵⁶ المرجع نفسه، ص 129.

³⁵⁷ زاهية دياب وبرويس، السياسة التعليمية في الجزائر في العهد العثماني: قراءة سوسيو تاريخية، مجلة العلوم الإنسانية، المجلد 21، العدد 01، 2021 م، ص 180.

³⁵⁸ وليام شارل، المصدر السابق، ص 82.

³⁵⁹ يوسف عبد اللاوي، التعليم الشرعي في الجزائر واقع وتطلعاته، المؤتمر الدولي للتعليم الديني في تركيا وتطلعات الأمة: دراسة واقع التعليم الديني في كل من فلسطين والجزائر، قونية: تركيا، 12-13/05/2017، ص 8.

³⁶⁰ لبيتي مهدي وصباح شريفي الحركة التعليمية في الجزائر العثمانية، مذكرة مقدمة لنيل الماستر، جامعة محمد بوضياف، المسيلة 1017، 2016 م، ص 19.

³⁶¹ لزغم فوزية، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية 1518-1830 م، [د. م.]، [د. ت.]، ص 63.

وأقل وحدة في التعليم الابتدائي هي الكتاب (جمع كتاتيب)³⁶³. أما بالحديث عن البرنامج التعليمي في هذه المرحلة، أي المواد المدرسية:

في المرحلة الأولى : كان يتم تعليمهم القراءة والكتابة ويحفظون القرآن وكان تعليم المادتين الأوليين سيستغرق عادة سنتين، في حين يتطلب حفظ القرآن خمس سنوات، إلا أن معظم التلاميذ كانوا يغادرون المدارس عند نهاية السنة الرابعة، كما أن دراستهم للقرآن كانت تقتصر على تنمية الذاكرة ولا تتعداها إلى شرح وتفسير آياته المحفوظة بالتتابع. ويتم التعليم الابتدائي عادة مرتين في اليوم في الصباح من الخامسة والسادسة حتى العاشرة، وفي المساء من الثالثة عشر إلى الساعة السابعة والثامنة عشر مع راحة في الوسط قبل صلاة العصر، أما بخصوص العطلة الأسبوعية تبدأ من عصر يوم الأربعاء في صباح يوم الجمعة.³⁶⁴

وفي الأخير يمكن القول أن المادة الأساسية في هذه المرحلة تمثلت في تعليم القرآن الكريم، الذي هو أساس الثقافة الإسلامية، وعلى الرغم من أن المدرسة لم تسير العصر آنذاك والحالة الاجتماعية، إلا أنها كانت ذات أثر جلي في تأدية وظيفتها الرئيسية في المجتمع.

2/ الطور الثانوي: عندما يجتاز الطفل المرحلة الابتدائية بنجاح التي عادة ما تكون بختم القرآن فيواصل دراسته في الثانوية، كان التعليم في المرحلة الثانوية يتوسط الحلقة التعليمية بين الطور الابتدائي والعالي، وكان يزاوّل هذه المرحلة في بعض المدارس التي بناها محبو العلم وأنصاره من الحكام والأعيان وذوي البر والإحسان مثل مدرسة سيدي أيوب ومدرسة حسن باشا في العاصمة ومدرسة سيدي الكتاني... إلخ، وللإشارة فإن التعليم في هذه المرحلة كان يختلف عن سابقتها من مراحل التحكيم فالمدرس لم يكن حرا وخصوصا في المدن إذ كان موظفا يعينه الباشا أو الداي وتسلط عليه الرقابة والقيود³⁶⁵، وكان معدل المنح بالنسبة إليهم يتراوح بين 160 و200 سنويا بالإضافة إلى حصولهم على السكن مجانا³⁶⁶، وما يميز هذه المرحلة عن سابقتها أن الطلبة تكون لهم الحرية في اختيار المواد التي يدرسونها وغير ملتزمين ببرنامج دراسي معين نظرا لانعدام الوصاية أو الوساطة التي تفرض عليهم ذلك، إذ يختار

³⁶² عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1900م، ط [من ومز]، موفم للنشر، [د.م.]، [د.ت.]، ص 218.

³⁶³ محمد صالح بوضياف، أثر الأوقاف في تعليم اللغة العربية أيام الخلافة العثمانية في الجزائر، مجلة دراسات المعاصرة، مجلد 5، العدد 01، تسمسليت، 2020-2021 م، ص 20.

³⁶⁴ فضيلة بن عامر وفتيحة شابو، المساجد ودورها التعليمي والثقافي في الجزائر في الفترة الحديثة 1518-1830م، مذكرة تخرج لنيل الماستر، جامعة الجليلي بونعامة، خميس مليانة، 2018-2019 م، ص 70.

³⁶⁵ نفسه، ص 63.

³⁶⁶ فضيلة بن عامر وفتيحة شابو، المساجد ودورها التعليمي المرجع السابق، ص 16.

الطلبة ما يناسبهم حسب ميولهم وطاقتهم وإمكانياتهم الفكرية، فإذا كان الطالب قد كون فكرة واضحة عن مدرس بعينه قبل مجيئه فإنه يقصده مباشرة إلى حلقاته ويتابع دراسته معه، في المادة التي يدرسها أو المواد، أما إذا جاء الطالب وهو لا يدري عن سیدرس فإنه يجلس إلى المدرسين عدة مرات حيث يستفسر ويستقر رأيه على واحد منهم أو أكثر³⁶⁷، وكان هؤلاء الأساتذة يحترمون ميول الطلبة في اختيار المواد التي سيدرسونها إذ كان لهذا دور إيجابي على الكثير منهم فقد نبغ الكثير منهم في مختلف العلوم النقلية كانت أو عقلية" ومن جملة ما يقدم لتدريس من علوم ما يلي:

تفسير القرآن الكريم، الحديث النبوي، الفقه، التوحيد وعلم الكلام، أصول الفقه وأصول الدين القراءات بالإضافة إلى التصوف³⁶⁸، بينما ضم الطور الثانوي حسب المعطيات التي سجلت في هذا المستوى، حوالي 3000 تلميذ من كل إقليم³⁶⁹، حيث جرت العادة آنذاك ألا يزاول التلاميذ دراساتهم في المنطقة التي يسكنونها بل يبتعدون عن جهاتهم فيقصدون المساجد والزوايا البعيدة التي اشتهرت بالتدريس والتعليم³⁷⁰، وعند الانتهاء من هذه المرحلة، ينال الطالب "إجازة" تشهد له بأنه قد درس جميع العلوم التي تدخل في نطاق تخصصه: الإجازة ليست شهادة مكتوبة ولكنها تعبير شفوي من المدرس إلى التلميذ، وفي الأخير لابد من الإشارة إلى نقطة مهمة وهي أن هذا التعليم كان مجاني بل ويحصل كل طالب على منحة مالية إلى جانب الأكل والسكن.

3/ الطور العالي: يذكر "جون ب. وولف" أنه وبحلول القرن الثامن عشر كان يوجد ثلاث مدارس عليا (كوليج colleges)³⁷¹، لكن ما يمكن تسجيله بداية بالنسبة لهذا الطور التعليمي غياب الهياكل المتكفلة به، حيث لم يكن في الجزائر كلها جامعة واحدة بالمعنى المتعارف عليه، فقد خلت الجزائر العثمانية من مؤسسة للتعليم العالي بحيث لم توجد نظم التعليم مثل جامعة إسلامية كالأزهر والقروان والزيتونة، لكن ورغم ذلك إلا أن دروس جوامعها الكبيرة كانت تضاهي بل تفوق أحيانا دروس الجامع الأموي بدمشق والحرمين³⁷²، بفضل مدرسيها من شيوخ ذوي كفاءات علمية بارزة في مواد المدرسة الذين كان يتم تعيينهم في المؤسسات التعليمية بواسطة قرارات سلطانية، شريطة أن

³⁶⁷ محمد صالح بوضياف، أثر الأوقاف في تعليم اللغة العربية المرجع السابق، ص 22.

³⁶⁸ يوسف عبد اللاوي، التعليم الشرعي في الجزائر..... المرجع السابق، ص 16..

³⁶⁹ فضيلة بن عامر وفتيحة شابو، المساجد ودورها التعليمي المرجع السابق، ص 18.

³⁷⁰ محمد صالح بوضياف، أثر الأوقاف..... المرجع السابق، ص 21.

³⁷¹ جون وولف، الجزائر وأوروبا مصدر سابق، ص 154

³⁷² هاجر عطيلي، موقف الإحتلال الفرنسي من المؤسسات العلمية والدينية في الجزائر، 1830-1938م، مذكرة مقدمة لنيل الماستر، جامعة حمة لخضر، الوادي، 2018-2019، ص، ص 25، 26.

تتوفر فيهم بعض الشروط مثل أن يكونوا وافري العلم، ملمين بالكتاب ومتمكنون من السيطرة على مجالس العلمية، بحسن حديثهم وخفة روحهم وسرعة بديهتهم أمثال: دروس عبد القادر بن عبد الله المشرفي في معسكر وأحمد البوني في عنابة كانت مضرب الأمثال في العمق والإحاطة والرقى³⁷³، ويتم تلقين الدروس في هذه المرحلة بالجوامع الكبيرة نذكر من أهمها: المدرسة القشاشة ومدرسة الجامع الكبير ومدرسة الأندلس...، أما عن عدد الطلبة في هذه المرحلة فقد أشارت الإحصائيات إلى أنهم كانوا بين 600 إلى 800 في كل إقليم يواصلون تعليمهم العالي، يتقدم الطالب لتدريس من السادس عشر إلى الواحد والعشرين سنة، وأهم مواد التعليم العالي هي النحو والفقه بحيث يتم فيها التوسع والتعمق في دراسة العلوم الدينية واللغوية فالعلوم الدينية كانت تقتصر على تفسير القرآن الكريم في التفسير الواحد والحديث الذي يدرس فيه صحيح البخاري وموطأ مالك، بالإضافة إلى التوحيد أو علم الكلام بالمنظومة الجزائرية وعقائد السنوسي الثلاث، والقراءات بمنظومة الجزري والخرابوإبن يرى والشابطين الصغرى والكبرى³⁷⁴. ويدرس الطلبة أيضا شيئا من التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية ويدرسون أيضا المنطق لصلته بعلم التوحيد والحساب لعلاقته الوثيقة بعلم الموارد والفلك لمعرفة أوقات العبادات³⁷⁵، وفي هذا المستوى هناك من كان يكتفي بالتعليم المحلي بينما هناك من يسافر إلى الجامعات والمعاهد الإسلامية المشهورة في الخارج كالزهر والزيوتونة والقيروان للاستزادة من العلم والمعرفة على يد كبار شيوخ والمدرسين والعلماء ثم يعودون إلى بلادهم وقد حصلوا على العلم الغزير يؤهلهم إلى مصاف الشيوخ، وهنا لابد من الإشارة لنقطة مهمة وهي أن هذه الجوامع استضافت علماء من البلدان الإسلامية، ألقوا فيها الدروس ومن أشهر مدرسيها العلامة سعيد قدورة، على الأنصاري السلجماسي، أحمد بن عمار ومحمد بن المشاهد³⁷⁶، بالإضافة أيضا للمدرسين الذين قدموا إليها من الأناضول، بحيث أقيمت علاقات علمية بين العلماء في مدينة الجزائر واسطنبول، كما كانت هذه المعاهد العليا تتكفل بإيواء الطلبة وتمنح للبعض منهم منحة سنوية من دخل الأوقاف، وكانت مدينة الجزائر في عهد العثمانيين قبلة علم تشد إليها الرحال، وهذا ما يتجلى من حديث الأديب والرحالة ابن زاكور الفاسي الذي تتلمذ في هذه المدينة³⁷⁷.

وبناء على ماسبق، يمكننا القول أن التعليم في الفترة العثمانية، قد شهد انتشارا واسعا عبر ربوع الوطن الجزائري، وهذا بشهادة المصادر التاريخية التي أكدت كثرة المراكز التعليمية وتواجدها تقريبا في كل مكان سواء في الريف أو

³⁷³ فضيلة بن عامر وفتيحة شابو، المساجد ودورها التعليمي والثقافي..... المرجع السابق، ص 20.

³⁷⁴ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 354.

³⁷⁵ عبد العزيز شهب، الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، [د.م]، [د.ت]، ص 70.

³⁷⁶ فضيلة بن عامر وفتيحة شابو، المساجد ودورها التعليمي والثقافي..... المرجع السابق، ص 20، المرجع السابق، ص 18.

³⁷⁷ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، المرجع السابق، ص 354.

المدينة. لكن ما يعاب على الممارسة التعليمية في الجزائر العثمانية هو غياب منظومة تعليمية واضحة المعالم تؤطر لمناهج وبرامج تعليمية موحدة، تخضع للمعايير الثقافية لتلك الحقبة وتواكب تطورات العصر، فالمناهج والبرامج التي عرفتھا الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر كانت في المجمل تخضع لإرادة المدرسين وكذا الطرائق التحصيل العلمي السائدة آنذاك التي كانت تعتمد على النقل والرواية والحفظ ولا تشجع ملكات النقد، بالإضافة إلى نوعية التعليم الذي كان تعليمًا دينيًا بحتًا، كل هذه الأمور حالت دون إعطاء دفعة قوية للعملية التعليمية .

لقد ساهم التعليم الديني ساهمة كبيرة في الحفاظ على الهوية الدينية والثقافية للفرد الجزائري، لكن هذا الاعتماد الكلي عليه وعدم الانفتاح على العلوم العقلية أدى إلى عدم تسجيل إسهامات حقيقة في دفع عجلة المجتمع نحو التغير، ودفع بالملاحظين الأجانب إلى مهاجمة التعليم في الجزائر في تلك الحقبة"³⁷⁸.

*5 خامسا: -الزوايا

تعد الزوايا من ضمن أبرز المراكز الإسلامية والتي قدمت إسهامات كبيرة في نشر العلم والمعرفة المتنوعة في بلاد الإسلام وبين المسلمين، شأنها في ذلك شأن المساجد.

وقد حافظت هذه الزوايا منذ نشأتها على القرآن تعليمًا وقراءة وتلاوة وحفظًا، كما حافظت على نظمها التربوية، ولعبت دورًا رائدًا عبر تاريخها المديد من حيث هيتها بما كانت تقوم به من مهام تربوية ودينية واجتماعية وفي الإرشاد والتوجيه والتعاون في حل المشاكل والتغلب على الصعاب في ظل العصبية والجهل والعروضية والرواسب العرقية، والتخلف العقلي والحضاري .

والزاوية تعني الركن أو المكان المعزول، وهي بقعة من الأرض جاءت من انزوائها بعيدا عن بقية المناطق المتقاربة من بعضها، فهي تشبه الدير أو المدرسة، فنجد فيها الأمور البسيطة مثل الغرف المخصصة لضيوف الزاوية، وللحجاج، والمسافرين، وللطلبة.

وتعتمد الزوايا على تبرعات وزكوات المحسنين، والهدايا وبواسطتها تتولى مؤسسة الزوايا الإنفاق على طلبة العلم وحفظ القرآن الكريم والقائمين على خدمتها من الوكلاء والمقدمين، والمؤذنين والأئمة.

وجهة ثانية، كانت الإعانات التي يقدمها السكان وخاصة الأغنياء منهم، سواء كانت عينية أو مادية وتمثل موردا من موارد تمويل وتمويل الزوايا.

³⁷⁸ عبد العزيز شبيب، الزوايا والصوفية.....المرجع السابق، ص 68.

تتفق الكتابات والبحوث أن الزوايا كانت منتشرة وبعدها كبير "... وهي عبارة عن بنايات مربعة تحتوي على غرف صغيرة، يدرس الطلبة في هذه المدارس القراءة والكتابة والحساب، ويجري التعليم في الهواء الطلق، والمعلمون عادة هم أئمة المساجد، ويتلقون منحة سنوية من الحكومة، إلى جانب هبات والهدايا التي تصلهم في المناسبات من أولياء أمور التلاميذ وأصدقائهم وكثير من هؤلاء الطلبة يعيشون في أماكن تقع بعيدا عن المدينة"³⁷⁹.

انتشرت الزوايا بتواعد التصوف وانتشاره، بحيث كان لكل شيخ طرق صوفي يؤسس لطريقته زوايا في أنحاء متفرقة من البلاد، فهذا "الشيخ محي الدين" يصف زاويته بأنها "مقام ابراهيم من دخله كان آمنا" تتوسط في النزاعات والخلافات الفردية والجماعية، كما كانت دورا للعبادة والدراسة بالإضافة إلى تقديم يد المساعدة للفقراء والمحتاجين

ومأوى لعابري السبيل وملجأ للمضطهدين³⁸⁰.

³⁸¹ E. Lambert يذكر الباحث: "أدمون لامبارت" أن الزوايا كانت تقدم تعليما متنوعا على الشكل التالي:

- تحفيظ القرآن الكريم عن ظهر قلب

- تعليم البلاغة العربية.

- تعليم الفقه على شرح خليل.

- تلقين صحيح البخاري.

- دراسة سبعة أو ثمانية تفاسير للقرآن الكريم.

- تدريس الهندسة والفلك.

- دراسة الشعر والأدب العربي، ومن أبرز هذه الزوايا نذكر:

1-1 *زاوية الجامع الكبير:

شيدت هذه الزاوية سنة 1093هـ/1629م من طرف المفتي المالكي سيدي سعيد بن الحاج ابراهيم، ويضم مدرسة

وزاوية بها حجرات موزعة على طابقين وهي مخصصة لإيواء العلماء الفقراء، ولبيت موظفي الزاوية كما يتوفر بها

مراحض عمومية، وعيون مائية.

2-1 *زاوية الأشراف:

كنكرات، مذكرات أسير الداوي كانكارث قنصل أمريكا بالمغرب، ترجمة و تعليق وتقديم إسماعيل العربي، د. م . ج. الجزائر، 1982، ص 98.³⁷⁹

³⁸⁰ ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الإمارات العربية المتحدة، 2000، ص 113.

³⁸¹ نفسه، ص 112.

تقع هذه الزاوية بزقة الجنينة، بناها الداي محمد بكداش سنة 1121هـ/1709م، والأشراف هم الذين يثبتون بعقود قضائية ينحدرون من سلالة آل البيت وأنهم يتواجدون بمدينة الجزائر بأعداد كبيرة حتى شكلوا جماعة متميزة داخل مجتمع المدينة، ولهم مؤسسات خاصة بهم وضع هؤلاء الأشراف شروطا لها نلخصها فيما يلي:

* لا يسكن الزاوية إلا الشريف غير المتزوج.

* لا يتم اختيار موظفي الزاوية من إمام ومدرس ومقدم وقارئ وشاوش إلا من طرف أشراف المدينة، وإذا لم يتمكن أحد الأشراف العمل بأعباء التدريس، فيعهد الأمر إلى أحد الفقهاء.

* يتكفل وكيل الزاوية باستغلال مداخل الزاوية، بتوفير مستلزمات الزاوية أولا ثم الإنفاق على الأشراف الفقراء المولودين بمدينة الجزائر ثانية، ويمنع الوكيل أن ينفق على نفسه من مداخل الزاوية.

* يستفيد من مداخل الزاوية، الأشراف سواء كانوا رجالا أو نساء أو أطفالا.

* يمنع على نقيب الأشراف أن يستغل منصبه للتدخل في شؤون الزاوية، ولا يتعامل معها إلا بصفة فرد من أفراد الطائفة.

* تحتضن الزاوية مرة واحدة في كل سنة اجتماعا يضم كبار طائفة الأشراف لتقويم مهام وكيل الزاوية.

* كل تعيين وظيفي يتعلق بالزاوية يصدر عن جمعية الأشراف.

* يمكن للوكيل وأفراد عائلته أن يدفن بمقبرة الأشراف أوصى بذلك.

* ينظم الوكيل إطعاما بالزاوية في اليوم الثالث من الاحتفال بالمولد النبوي الشريف.

وبناء على ما سبق، يمكننا أن نستنتج أن الزوايا بالجزائر العثمانية قدمت خدمات جليلة للثقافة المحلية وكانت سندا قويا للغة العربية وطلابها، وأدت دورا كشريك اجتماعي "وبفضلها تخرج أجيال من المتعلمين الذين نشروا الوعي الديني"³⁸²، بعدما فتحت الزوايا أبوابها لكل أبناء القبائل القريبة والبعيدة الذين كانوا يصطحبون معهم الأغذية والملابس لأن التدريس بالزاوية مجانيا يأكل الطلبة جماعة من المؤونة التي تصل المرابط في زاويته من القبائل المحلية المجاورة في شكل صدقات وزكاة، يتعلم الطالب فيها أساسا العلوم الشرعية المختلفة، وبعد عدة سنوات من

³⁸² Emerit. Revue Histoire Moderne et contemporaine. 1954.p203.

التعلم يرجعون إلى قبائلهم ثم يفتحون كتاتيب صغيرة لتعليم أطفال القبيلة، كما نقلت الزوايا تعاليمها إلى أنحاء إفريقيا الغربية.³⁸³

غير أن هذه الزوايا حملت في طياتها ثقافة الزهد وعقلية الخرافة، وعزلة الناس والهروب من الدنيا وعلومها والاهتمام بعلوم الآخرة بعيدا عن ما كان يجري من تطورات علمية خطيرة في العالم وأوروبا³⁸⁴، وفي هذا الصدد يرى صاحب تاريخ الجزائر الثقافي: "أن انتشار الزوايا والاعتقاد في الشيخ أدت إلى نتيجتين خطيرتين، ذلك أن نقل التعليم إلى الزوايا أدى إلى الاكتفاء بالحد الأدنى منه بطريقة جافة ريفية ضيقة...وكانت النتيجة تدهور مستوى التعليم بالجزائر ومدنها التاريخية"³⁸⁵.

إضافة إلى ما سبق، يرى العالم الفكون، أن انتشار الزوايا في الأرياف والمدن بشكل ملفت للنظر، لم يكن كلها لإطعام الطعام ونشر العلم، بل كانت في معظمها مصيدة لجلب الأنصار وإشاعة الخرافة وإعطاء الورد والاتصال بالشيخ المرباط "وربما كانت متلصصة الأعراب والبوادي انقسمت بقسمهم وتحزبت بحزبهم...أما الزوايا والرعايا فكل يقسم ببركة سيده، فإذا أردت أن تعرف أحدا من أي حزب، ومن أي فريق فاستحلفه فيتضح الأمر بحلفه".³⁸⁶

6-سادسا: -التنظيم الاجتماعي:

قدر عدد سكان الجزائر مع بداية القرن التاسع عشر ثلاثة ملايين نسمة رغم الكوارث الطبيعية والأوبئة التي تعرضت لها البلاد.

1-تركيبية السكان بالجزائر العثمانية : يتوزع سكان الجزائر ما بين الحواضر الذين لا يتعدى عددهم خمسة بالمائة من مجموع السكان، بينما يتمركز غالبيتهم بالريف والجبال والمناطق الداخلية بنسبة تقدر خمسة وتسعين بالمائة وهم يتوزعون على النحو التالي:

1-6: -طبقة العثمانيين الأتراك:

³⁸³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1.....مرجع سابق، ص 148.

³⁸⁴ نفسه، ص147.

³⁸⁵ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر...ج1، مرجع سابق، ص48.

³⁸⁶ عبد الكريم الفكون، منشور الهدايا في كشف حال من أدعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1987، ص142.

تأتي في أعلى الهرم الاجتماعي رغم قلة عددهم الذي لا يتعدى اثنان في المائة لأنهم يحتكرون السلطة السياسية والعسكرية والاقتصادية، فمنهم الباشاوات، والوزراء، ورياس البحر، وأعضاء الديوان،³⁸⁷ وعاشت هذه الطبقة في عزلة وتكبر وعداء ونفور من السكان المحليين رغم حدوث تقارب بين الطرفين، أما الأتراك المسيحيون الذين اعتنقوا الدين الإسلامي أو ما يعرف بالأعلاج فقد اندمجوا في الطائفة التركية بكل سهولة ونشأت علاقة قوية بين الطرفين، وهناك أيضا أعلاج اعتنقوا الإسلام طواعية فأصبحوا أتركا مدافعين عن الإسلام والطائفة التركية بالجزائر.³⁸⁸

2-6: الكراغلة:

هم أبناء الأتراك من أمهات جزائريات، لذلك من حصلوا على الامتيازات والمناصب لأنهم أقرب من الجزائريين من الأتراك، انتشر الكراغلة في أغلب أنحاء الإيالة وبشكل خاص بالحواضر الكبرى كمدينة الجزائر وتلمسان ووهران وقسنطينة وتلمسان التي أصبحوا يشكلون فيها أغلبية السكان، كذلك انتشروا بالأرياف بعد طردهم من مدينة الجزائر بسبب تمردهم على السلطة الحاكمة وجمعوا بوادي الزيتون الواقع عند قدم جبل فليسة، وقد قدر عددهم ما بين ثمانية وعشرة آلاف³⁸⁹، ورغم حركة الاحتجاج والتمرد ضد السلطة إلا أنهم حققوا بعض المكاسب والامتيازات منها الوصول إلى المناصب العسكرية في البحرية، ومنصب القائد والباي، والتمتع بارتداء الملابس المطرزة بالذهب.³⁹⁰

3-6: طائفة الحضر: تتمثل في سكان الحواضر وتشمل العلماء والفقهاء والقضاة والتجار وأصحاب الحرف والصنائع والكتاب والإداريين، ومن مهاجري الأندلس وفئة البرانية والبرانية.³⁹¹

أولا: -فئة المهاجرين الأندلسيين: ازداد عدد مهاجري الأندلس بعد قرار الطرد الجماعي من طرف الكنيسة المسيحية الإسبانية سنة 1610م، وكان لهؤلاء المهاجرين دورا كبيرا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية

³⁸⁷ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ...المرجع السابق، ص147.

³⁸⁸ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ...المرجع السابق، ص149.

³⁸⁹ حمدان خوجة، المرأة.....مصدر سابق، ص155.

³⁹⁰ شالاز، مصدر سابق، ص56.

³⁹¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر.....ج1، مرجع سابق، ص149.

بفضل ما حملوا معهم إلى الجزائر من أموال وحرف وصنائع وفنون في مختلف المجالات وخاصة منها الزراعية، فادخلوا زراعات جديدة كالقطن والعنب والحريير الطبيعي وأشجار الفواكه بما في ذلك طرق السقي كالترع المائية، كذلك ادخلوا عدة صناعات مثل صناعة البارود والأسلحة وصناعة السفن وتطوير التجارة.³⁹²

ثالثا: -طائفة البرانية:

تضم كل السكان الذين قدموا من خارج المدن أو الأرياف طلبا للعمل مثل مدينة الجزائر التي كان لها عمال غير مقيمين بصفة دائمة بغية تزويد المدينة باليد العاملة كما الحال بالسكريين، والمزابيين، والزواوة، والمزابيين وجميع سكان القدمين من الصحراء الشرقية الجزائرية، ويعمل هؤلاء في الأعمال الشاقة كالحمامات بتوفير المياه من العيون، والمخابز والبناء، والموانئ، والبيوت والقناصل الأجنبية³⁹³

رابعا: -طائفة الدخلاء:

تشمل كل الأجانب مثل العبيد المسيحيين والأحرار منهم، بالإضافة إلى اليهود والعبيد السود، ويعمل المسيحيون في السفن البحرية والموانئ بينما يعمل اليهود بالتجارة³⁹⁴

أما العبيد السود فقد دخلوا إلى الجزائر عن طريق التجارة الإفريقية الصحراوية مروراً ببعض المدن الصحراوية الجزائرية، أما العبيد المسيحيون فمصدرهم الجهاد البحري والحروب البحرية بين الجزائر والدول الأوروبية مثل إسبانيا وفرنسا وبريطانيا وغيرها، وكان هؤلاء العبيد يعملون في السجون والبساتين وقصور البايات والدايات وكبار موظفي الدولة أو في التجديف لدى رياس البحر ويختلف عددهم من سنة إلى أخرى حسب نشاط رياس البحر والبحرية الجزائرية، وبلغ عددهم سنة 1830م بمدينة الجزائر تقريبا عشرة آلاف.³⁹⁵

³⁹² حمدان خوجة، المرأة.....مصدر سابق، ص160.

³⁹³ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر.....ج1، مرجع سابق، ص151.

³⁹⁴ عبد الكريم الفكون، منشور الهدايا.....المصدر السابق، ص144.

³⁹⁵ نفسه، ص365.

خامسا: -طائفة اليهود:

تعتبر أهم عنصر من طائفة الدخلاء من حيث دورهم الاقتصادي الذي لعبوه خلال الفترة العثمانية بالجزائر، فقد تحكم اليهود في التجارة الداخلية والخارجية لأنها هذه الجماعة كانت أقرب إلى الحكام العثمانيين وأصحاب المناصب الإدارية المتحكمة في السياسة والاقتصاد³⁹⁶ من خلال عملية السمسرة والوساطة في العمليات التجارية وخاصة منها تجارة الحبوب ببابليك الشرق، وأدى الاحتكاري التجاري للعائلات اليهودية إلى تكوين ثروة مالية طائلة على حساب السكان والأهالي الذين أصبحوا يتدمرون من النفوذ اليهودي المتزايد في الجزائر مما أدى إلى نهب الهي اليهودي واغتيال الداى مصطفى يوم 30 أوت 1805م بسبب تعامله المفرط مع كبار التجار اليهود وفتح المجال للاقتصاد أمامهم للسيطرة عليه والتحكم في مقدرات التجارة الخارجية في الجزائر العثمانية³⁹⁷

ثانيا: -سكان الريف:

يشكل هؤلاء أغلبية السكان في الجزائر 95' في المائة، ويعتمدون في معيشتهم على النشاط الفلاحي والرعوي، وبسبب النظام الإقطاعي الذي فرضته السلطة العثمانية أصبح الفلاح يأتي في أدنى مرتبة في السلم الاجتماعي بسبب انتشار الفقر والمرض والأوبئة بين أفراد هذه الطبقة، وبصفة عامة يضم الريف عدة فئات اجتماعية متميزة وهي:

-الأشراف والمرابطون وقبائل المخزن وقبائل الرعية: تتمتع بامتيازات متفاوتة ويتمتعون بالنفوذ المالي والإداري

على مستوى مناطقهم، فالمرابطون والأشراف يتمتعون بالنفوذ الديني والروحي على السكان لذلك نجد السلطة

العثمانية تخشاهم وتتحاشى الصدام معهم وهم بذلك صمام الأمان، وتعترف السلطة العثمانية بسلطتهم على

السكان المحليين³⁹⁸.

ورغم الفوارق الاجتماعية الكبيرة بين الحواضر والريف إلا أن السلطة العثمانية تمكنت من تقوية نفوذها

وسلطتها على في الريف الجزائري عن طريق المرابطين والرجال الصوفية وشيخ القبائل المتنفيذين وقادة العشائر

³⁹⁶عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر. من البداية إلى غاية 1962، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1997، ط1، ص75.

³⁹⁷عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر.مرجع سابق، ص76.

³⁹⁸جمدان خوجة، المرأة.....مصدر سابق، ص88.

الذين يستفيدون من الولاء للسلطة العثمانية الحاكمة"³⁹⁹، أما العلاقة بين سكان المدينة والريف فهي علاقة تبادل المصالح، فالريف الجزائري يقدم منتجاته إلى سكان الحضر، بينما تقدم الحواضر الأدوات والمواد المصنوعة محليا أو المستوردة.⁴⁰⁰

³⁹⁹ العربي الزبيري، التجارة الخارجية.....مرجع سابق، ص48.

⁴⁰⁰ نفسه، ص49.

الفهرس:

5	*مقدمة:
5	1/دولة بني حفص:
6	2/دولة بني مرين:
6	3/دولة بني زيان:
12	1/المحاضرة الأولى: الغزو الأيبيري للبلدان المغربية:
12	1-1-الأسباب السياسية والاقتصادية:
12	2-1-الأسباب الدينية:
13	3-1-الأسباب العسكرية:
14	2-أوضاع الدول المغربية في أواخر القرن 15 م ومطلع القرن 16 م:
18	2/المحاضرة الثانية: التطور السياسي للجزائر في العهد العثماني:
18	1-دار السلطان:
19	2-بايلك الشرق:
20	3-بايلك الغرب الجزائر:
31	3/المحاضرة الثالثة: العلاقات الدولية للجزائر في التاريخ الحديث:
31	*-أولا: مع الإمبراطورية العثمانية:
32	*ثانيا: العلاقات العسكرية:
39	ثانيا: فترة حكم العلويين:
39	-ثانيا: عهد الاضطرابات 1727-1757 م:
43	مرحلة الهدوء الحذر 1708/1727 م:
47	1-العلاقات مع فرنسا:
61	3-العلاقات مع اسبانيا:
63	*-أسباب انتصار المقاومة ضد الجيش الصليبي الاسباني:

65.....	*4- العلاقات مع البرتغال:
66.....	5-العلاقات الجزائرية-الامريكية:
67.....	الخلاصة:
67.....	*4/ المحاضرة الرابعة: -الدولة و المجتمع في الجزائر أثناء الفترة العثمانية.
67.....	*أولاً: نظام الحكم:
78.....	*نهاية نظام الأغاوات.....
92.....	سادساً: *-التجارة البينية المغاربية:
94.....	1- أبرز أسواق التبادل التجاري بين الجزائر وتونس:
95.....	2- أهم المواد التجارية المتبادلة مع تونس:
95.....	*ثالثاً: مع طرابلس الغرب:
110.....	-التعليم-رابعاً:
122.....	5خامساً: -الزوايا*.....
130.....	الفهرس: